THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

Provided by the Library of Congress
Public Law 480 Program

76-961753

فاطمة الزهراء (ع)

أم أبيها

فاضل الحسيني الميلاني

فاطمة الزهراء عليها السلام
أم أبيها

الكتاب الفائز بالجائزة المعنوية الأولى في
المباراة الكتابية عن الصديقة الزهراء عليها السلام

فاضل الحسيني الميلاني

مطبعة الآداب في النجف الأشرف

١٣٨٨ هجـ - ١٩٦٨ م

BP
80
.F36
M53

NOV - 1971 NOV 5 1971 PL 480

« أم أبيها »

قلادة قلد بها رسول الله (ص)

جيد بضعته المفضلة ! !

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الى : كل أنثى تنشد قدوة تقتدي بها في حياتها ؛

الى : كل مرأة تبحث عن الطريق الأمثل في الحياة .

الى : كل من يريد معرفة المرأة المثلى في تاريخ البشرية . . .

أهدي هذا الكتاب !

بطاقة ولاء

عزيزي القارىء :

هذه الأوراق (بطاقة ولاء) بين يدي سيدة النساء ، تكشف عن حب عميق لأهل البيت . بنيت عليه من ضلوعي كوخاً متواضعاً يقوى على تحدي الرياح من أن تعصف به :

وكلي أمل في أن تقبل الزهراء عليها السلام هذا الجهد المتواضع من أحد أحفادها .

مفتاح الحديث

أهداب النور :

١ ـ مولد النور .
٢ ـ الكوثر .
٣ ـ لغة المعجزة :

لقطات خاطفة :

٤ ـ حوراء انسية .
٥ ـ بضعة النبي .
٦ ـ أمّ أبيها :

حجو الزاوية :

٧ ـ على عتبة الزواج .
٨ ـ في بيت الزوج .
٩ ـ المرأة الكاملة :
١٠ ـ ثمار من دوحة الرسالة :
١١ ـ التربية الفاطمية :

بشائر :

١٢ ـ ويطعمون الطعام . . . :
١٣ ـ أجر الرسالة :
١٤ ـ المباهلة :
١٥ ـ آية التطهير .
١٦ ـ بلاغتها :
١٧ ـ عصمتها :

وعي الموقف :

بين عهدين :

١٨ ـ وفاة النبي .
١٩ ـ بعد النبي .

في المعترك :

٢٠ ـ وراء علي الى الجامع .
٢١ ـ اضرام النار :
٢٢ ـ فدك .
٢٣ ـ بيت الأحزان :

إغفاءة :

٢٤ ـ الغصن الذاوي :

٢٥ ـ على فراش الموت .

٢٦ ـ تشييع هادىء :

على العتبة

إنحناءة إجلال بين يديك سيدتي ، يا بضعة النبي ! !

وطأطأة للرأس تجاه مقامك الشامخ ، يا أم الحسنين ! !

أي قلم يرقى اليك ليكتب عنك ؟ !

وأي ريشة تدقّ وتلطف حتى تستطيع أن تصوّرك كما أنت ؟ !

قالوا عنك : أنك وترٌ في غمد :

وقالوا : أنك نداء الملايين .

وقالوا : أنك شهاب النبوة الثاقب :

وكنت أنا ممن قال : أنك أنثى في القمة (١) .

لكن ذلك كله لا يتعدى أن يكون مرآة تعكس جزءً ضئيلا مما أنت عليه ، أفلست أنت بنت النبوة البكر ؟ !

أم ألست ربيبة الوحي ؟ !

أجل !

أنحني مرة أخرى ثم ألتمس على لسان والدك العظيم سمة منحها إياك ، وقلادة قلّدك بها فأراه - روحي فداه وفداك - يناديك بـ « أم أبيها »

إذن ، فأنت أمّ أبيك : . .

وطبيعي أن تكوني أمّاً له في رسالته ، لا في ولادته ! !

ولكن هل يقف القلم عند هذا الحد ؟ ! انه يحاول أن يضيف على هذه الصورة بعض الرتوش ، ونعم ما يفعل عندما يفعل ذلك :

---

(١) هذه الأسماء هي بعض عناوين الكتب التي دخلت مضمار المسابقة .

وإزاء هذا الموقف يوجد موقف آخر يولي الرتوش وحدها اهتماماً بالغاً ، إنه يعطي النصيب الاكبر للاطار دون الصورة ، والشكل دون المضمون ، ولكني سوف لا أكون ممن يحبّذ هـذا الموقف : فله رجاله وله أنصاره ، ولست منهم .

ولئن كان سوق (الرتوش) رائجاً في عصرنا هـذا ، فليس من المنطقي أن يسعى الانسان وراء كل ما هو جارٍ ورائجٌ في العصر من دون تمييز بين صحيحه وسقيمه ، وغثه وسمينه .

• • •

إذن لأكن ممن يحاولون التعبير عن مشاعرهم الصادقة تجاه الصديقة الزهراء عليها السلام دون التعميق في الرتوش . . .

وهكذا عشت التجربة في فترة لا تتجاوز الاسابيع الثلاثة ، خرجت في نهايتها بهذه الأوراق التي أقل ما فيها أنها (بطاقة ولاء) .

في الليلة الأخيرة من أمد المباراة قدّمت هذا الكتاب إلى لجنة التحكيم ولم يدم الانتظار طويلا حتى أعلنت النتائج .

• • •

وذات ليلة رَبتَ سيدي الوالد دام ظله الوارف على كتفي ، وقال بلهجة فيها الكثير من اللوعة والولاء :

هيه يا بني ، ألا تنوي نشر ما كتبته عن الصديقة الزهراء (ع) ؟ !

قلت : بلى !

قال : عليك بذلك .

ومرّت لحظات فهمت من لغة الصمت خـلالها مدى عزم سيدي الوالد على هذا الأمر ، فامتثلت أمره ، وأخذت للأمر أهبته ، وها أنا أقدم الكتاب الى قارئي الكريم .

أهداب النور

١ ـ مولد النور .

٢ ـ الكوثر :

٣ ـ لغة المعجزة .

مولد النور

« الله نور السماوات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم » (١) :

مفهوم النور من أبسط المفاهيم وأوضحها على الاطلاق ، فلا تكاد تجد أحداً يجهل معناه . . . ومع ذلك فان البحث عن حقيقته في غاية التعقيد !

إنه قوام المعاني الجمالية كلها ، فمتى ما ذكر النور اقترن معه ذكر الخير والجمال والحق والهداية والصلاح : وعلى عكس ذلك فان الظلام قوام المعاني الشريرة والفكر الهدامة والمتاهات والمفاسد :

وبقدر ما تكون عليه حصة الموجودات من النور الشامل تكون مرتبتها ومنزلتها بين باقي الموجودات ، وهكذا تتدرج من عالمها المادي الى عالم المجردات حيث النور أكمل : : : كل هذه الموجودات تستمد كيانها ووجودها ونورها من النور المطلق ، مصدر الأنوار ، وموجد المخلوقات ونور السماوات والأرض : : : الله جل جلاله :

* * *

أما في الأرض فيتمثل النور الالهي في بضعة من الآدميين ، شاء لهم

---

(١) سورة المؤمنون / ٣٥ .

الله أن يمتازوا عن جميع الخلق بذلك ، فهم مشاعل الخير والهداية على مرّ القرون والأجيال ، وقادة الأمم نحو السعادة والصلاح . . اختارهم الله حفظةً لسره ، وخزنة لعلمه ، وتراجمة لوحيه ، وأدلاّء على صراطه فعصمهم من الزلل وآمنهم من الزيغ والضلال . . . فكانوا نور الله في الأرض !

لقد ورد في الزيارة الجامعة : « خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين » وورد في زيارة الامام الحسين عليه السلام : « أشهد أنك كنت نوراً في الصلاب الشامخة والأرحام المطهرة ، لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها » وفي زيارة الامام موسى بن جعفر (ع) « السلام عليك يا نور الله في ظلمات الأرض » .

وقال الشاعر :

هم النور نور الله جل جلاله هم التين والزيتون والشفع والوتر

وتمثل نور الله أول ما تمثل في خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (ص) وعلي بن أبي طالب سيد الوصيين (ع) . . . وانحدر النور بعد ذلك من صلب النبي صلى الله عليه وآله . . . فكانت فاطمة عليها السلام .

ولعل قارئي الكريم يذهب به الوهم بعيداً فيراني أسبح في بحر الخيال وأنسج من ذلك على هذا النول ، لكنه الحق الذي نطق به الرسول الأعظم نفسه حيث قال .

« لما عُرج بي الى السماء ، أخذ بيدي جبرائيل ، فأدخلني الجنة ، فناولني من رطبها فأكلته ، فتحول ذلك نطفة في صلبي ، فلما هبطت الى الأرض واقعت خديجة وحملت بفاطمة ، ففاطمة حوراء إنسية ، فكلما

اشتقتُ الى رائحة الجنة شممت رائحة ابنتي فاطمة » (١) :

• • •

أجل ! تفجر هذا النور المشرق في بيت محمد صلى الله عليه وآله صبيحة العشرين من شهر جمادى الثانية في السنة الخامسة من البعثة ، فملأ قلب الرسول الأعظم بهجة وسروراً . وقد آثر الله الزهراء بما لم يؤثر به شقيقاتها الثلاث من قبل : (زينب ، ورقية ، وأم كلثوم) فكتب لها أن تكون ـ وحدها ـ الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة ، والمنبت الطيب لدوحة الشرف من آل البيت :

ولأمر قد قُدّر ، كان النبي صلى الله عليه وآله على علمٍ من أنه سوف لن يعقب الا من فاطمه ، فستكون هي التيار الذي يحمل نوره عبر أسلاك الزمن ، ولتضاء البشرية بعد ذلك من هذا النور الفياض : : .

ولذلك فقد كان يحبها حباً جماً ، حتى أنه كان يناديها أحياناً بـ (أم أبيها) :

وكان الأمر كما قدّر ، فقد توفيت كبرى بنات النبي (زينب) متأثرة بحادث وقع لها حين هاجرت من (مكة) الى (المدينة) بعد غزوة بدر ، وذلك أن أحد المشركين لقيها وهي في الطريق الى دار الهجرة ـ بعد أن فرّق الاسلام بينها وبين زوجها وابن خالتها أبي العاص بن الربيع ـ فنخسها في بطنها وكانت حاملا فاسقط حملها .

أما (رقية) و (أم كلثوم) فقد ماتتا بعد أن تزوجها (عثمان ابن عفان) على التتالي ، وكانت وفاة رقية نتيجة قضية تاريخية يطول شرحها :

وهكذا كان مولد هذا النور مبعث خير وسكينة في قلب النبي صلى الله

---

(١) أمالي الصدوق ، نقلا عن السيد حسن الشيرازي : كلمة الرسول الأعظم ص ٨١ .

عليه وآله ، وهذا ما دعاه الى الاهتمام بشأنها أيما اهتمام : فهو القائل في حقها : « فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ، ويؤذيني ما آذاها » (١) وهو الذي كان يمرّ على بيتها صباح كل يوم عنـد خروجه الى المسجد للصلاة ، ويأخذ بعضادة الباب قائلا : « السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » (٢) .

. . . الى غير ذلك من فضائلها ومكانتها في نفس النبي صلى الله عليه وآله ، ذلك ما سنعرفه في الفصول القادمة .

---

(١) علي بن عبد الله السمهودي : وفاء الوفاء بأخبـار دار المصطفى ج ١ / ٣٣١ .

(٢) بهذا اللفظ وألفاظ مشابهة ، راجع :

- صحيح البخاري : ٥ / ٢٧٤ .
- صحيح مسلم : ٤ / ٢٦١ .
- المستدرك على الصحيحين للحاكم : ٤ / ١٥٤ .
- ذخائر العقبى : ٢٩ .
- الصواعق المحرقة لابن حجر : ١٠٥ .
- مسند أحمد بن حنبل : ٤ / ٣٢٨ .
- الصحيح الجامع للترمذي : ٢ / ٢١٩ .
- مسند ابن ماجه : ١ / ٢١٦ .

الكوثر

« إنا أعطيناك الكوثر : فصلّ لربك وانحر : إن شانئك هو الابتر » (١)

لك الله يامحمد !!

المجتمع الذي تعيش فيه ، والذي أتيت لتقوض دعائم الجهل والفقر والفساد منه وتبني على أثر ذلك كياناً إنسانياً كاملا .. : لايزال يحمل في طياته رواسب الجاهلية المتمثلة في احتقار الانثى واعتبارها مدعاة للذل والهوان حيث قال فيهم الله تعالى :

« وإذا بُشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء مابشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب »(٢)

المجتمع الذي جئت لتنقذه من غمرات الضلالة ، وتأخذ بيده الى شاطئ السعادة والأمن والرفاه لايزال يعتبر الرجل الذي لم يعقب ذكراً أبتر ، ويعيّره على ذلك .. :

لك الله يا رسول الانسانية ! حين يراك العاص بن وائل خارجاً من المسجد ، فتلتقيان عند باب بني سهم وتتحدثان . . : وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد ، وتنصرف لبعض شأنك ، فيدخل العاص ويسألونه : من الذي كنت تتحدث معه ؟ فيقول : ذلك الابتر !! (٣)

---

(١) سورة الكوثر : ١ - ٣ .

(٢) سورة النحل : ٥٩ :

(٣) الفضل بن الحسن الطبرسي : مجمع البيان ج ١٠ / ٥٤٩ : شركة دار المعارف الاسلامية ، طهران ١٣٧٩ هـ :

أهكذا يجازى النبي على جهوده التي بذلها ليل نهار لهداية أولئك الغلاظ الشداد ؟

أليس الأجدر بهم أن يعزوه بوفاة ولده عبدالله ..؟

أهكذا تكون النكاية ؟ !

ولكن الله تعالى جل عن أن يترك النبي لوحده يتجرع الغصص والآلام فهاهو الأمين جبرئيل ينزل عليه بالوحي المبين ، مفرحاً قلبه ، مؤنساً وحشته ... « إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الابتر » . وصدق الله العلي : : .

فقد أعطى رسوله الكوثر : والكوثر على وزن (فَوْعَل) من الكثير يستعمل للمبالغة . أجل فقد أعطى الله رسوله صلى الله عليه وآله الكثير الكثير :

الكثير الكثير من العلم :

الكثير الكثير من الجاه والمنزلة :

الكثير الكثير من الاتباع :

الكثير الكثير من الذرية . : إنهم ذريته التي ستزدهر وتنبع من معين فاطمة الزهراء ، وتفنّد وصف العاص - وأمثال العاص - إياه بالابتر .

إنهم وُلد فاطمة ، وإن شئت فقل : وُلد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله .

وجاءت الآية الكريمة مفنّدة العموم في الدعوى التي كان يترنم بها أبناء الجاهلية :

بنونا بنو أبنائنا ، وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

كلا ، فالذرية من فاطمة ، ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأصدق شاهد على ذلك تجده في سيرة النبي نفسه : فقد كان يبذل لأولاد

فاطمة ، وللحسن والحسين عليهما السلام بالخصوص ما كان لايقصر عما يبذله أي أب تجاه أولاده :

« وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه ، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبي ، والنبي يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ، ولم يلبث أن حفظها المشرقان .

حُزّقه : : حُزّقه : : ترقه : . ترقه عين بقّه :

وربما شوهد النبي عليه الصلاة والسلام ساجداً وطفل من هؤلاء الأطفال راكب على كتفيه ، فيتأنى في صلاته ويطيل السجدة لكيلا يزحزحه عن مركبه ، وفي احدى هذه السجدات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد : المطية مطيتك (١) ! ..

بل ربما كان على المنبر ، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران ، فيسبقه حنانه إليهما وينزل من المنبر ليحملهما وهو يقول : « صدق الله العظيم إنما أموالكم وأولادكم فتنة » (٢)

وكان إذا سمع أحدهما يبكي نادى فاطمة وقال لها : « مابكاء هذا الطفل ؟ ألا تعلمين أن بكاءه يؤذيني ؟! » :

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حيناً بعد حين ، ويتولى خدمة الاطفال بنفسه وأبواهم قاعدان . ففي احدى هذه الليالي سمع الحسن يستسقي فقام صلوات الله عليه الى قربة فجعل يعصرها في القدح ثم جعل يعبعبه ، فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن ، قالت فاطمة : كأنه أحب اليك ؟ قال إنما استسقى أولا :

---

(١) وفي رواية أخرى ، أنه قال النبي (ص) للحسنين يوماً وقد حملهما على كتفيه : نعم الراكبان أنتما ، ونعم الجمل جملكما :

(٢) ومن هنا يستدل على أنه كان يعتبرهما بمثابة أولاده .

وقد يلفهم جميعاً في برد واحد فيقول لهم: « أنا وأنتم يوم القيامة في مكان واحد » :

: : وكانت هـذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعاً من أبوّة الأب الصغير » (١)

---

(١) عباس محمود العقاد : فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٤٠ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ـ ١٩٦٧ :

لغة المعجزة

• في لغة الأرقام : ١ + ١ = ٢

وأما في لغة المعجزة فان : ١ + ١ = ١٫٠٠٠٫٠٠٠

ولربما = اللانهاية

* في لغة المادة : الجماد لايتكلم ولا يمشي ،

أما في لغة المعجزة : فان الحصى تتكلم في يد النبي محمد (ص) ، والشجرة تنقلع من مكانها وتسير بأمر من رسول الله .

• في لغة المألوف : يستحيل على الميت أن يتكلم ؛

أما في لغة المعجزة فان : رأس الحسين عليه السلام يتلو القرآن في حين فصل من جسده الطاهر ورفع على رمح طويل فيتلو قوله عز من قائل : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً » ؛ . فيسمعه السامع ويقول : رأسك أعجب يا أبا عبد الله !

* • •

تلك هي لغة المعجزة : . ؛ لغة لا كاللغات ، ولكنها تفوق كل اللغات انها تحقق المستحيل ، وقد سموه في قاموس البشر (مستحيلا) ، أما في قاموس الاعجاز فهو (ممكن) واعتيادي جداً ؛

ولعل الاختلاف بين اللغتين ، والبون الشاسع بين القاموسين هو الذي جعل الكثير يشككون في المعاجز الالهية ، أو يعجزون عن تقديم تفسير معقول لها على الأقل ؛

ولكني أقول : شأن هؤلاء شأن الطالب الذي سمع اصطلاحاً فيزياوياً

ولنفرضه (الزخم) فراح يبحث عن معناه في معجم المصطلحات التجارية، وفي حرف الزاي بالذات فلم يجده . . . هاله ذلك ، وأخذ يقلب الأوراق ويتصفح الحروف الأخرى ، لعله يجد ضالته في حرف الراء باعتبار أن النقطة ربما جاءت طارئة . . فخاب في مسعاه .

وأخيراً ، وبدافع من الغرور ، اعتقد بأن هذه الكلمة ليست ذات معنى !

ونموذج آخر :

هو الذي سمع كلمة فارسية أو الكليزية فأخذ يبحث عنها في قاموس اللغة العربية . . . .

كلا !

لكل لغة قاموس ، ولكل علم مصطلحات ، ولكل شيء مقياس . فكما أن من العبث أن نبحث عن معنى كلمة فارسية في قاموس عربي ، ونفتش عن مصطلح قانوني في معجم فلسفي ، كذلك من العبث — بل الخطأ — أن نبحث في الظواهر المادية المألوفه عن تفسير للمعجزة . . .

. . .

وبعد ، فما يمنع الجنين أن يتكلم في بطن أمه ؟ ! !

تلك هي الزهراء . . كانت تؤنس أمها (خديجة) في أيام الحمل وتحدثها بما يطيب خاطرها ويبعث الطمأنينة والسرور الى قلبها !

لقد هجرتها نسوة مكة ، فكن لا يدخلن الى بيتها ، ولا يسلمن عليها ولا يتركن امرأة تدخل إليها ، هذا الاجراء كان جزء من المقاطعة التي فرضتها قريش على النبي (ص) إبان بعثته .

والمرأة تأنس بقريناتها ، وترتاح لسماع حديث بنات جلدتها ، فاذا ما تركنها وحدها أثر ذلك فيها أيما تأثير . . . لقد استوحشت خديجة لهذه

المقاطعة ، وكان جزعها وغمها حذراً على زوجها العظيم الذي تتربص العرب به الدوائر :

وقـــد شاء الله أن لايدع هذا القلب العامر بالإيمان يعيش حالة من الضمور والتآكل الداخلي ، فانطق الجنين الذي في بطنها ، وجعلها تحدث أمها حديث النساء في سمرهن ومجالسهن :

لقد دخل عليها النبي (ص) مرة وقال لها : ياخديجة من تحدثين ؟ !

قالت : الجنين الذي في بطني يحدثني ويؤنسني ! !

فقال : ياخديجة هذا جبرئيل يبشرني أنها أنثى ، وإنها النسلة الطاهرة الميمونة ، وأن الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها وسيجعل من نسلها أئمة ويجعلهم خلفاء في أرضه بعد انقضاء وحيه .

• • •

لقد ظلت تحدث أمها بما يبعث الطمأنينة والدعة الى قلبها طيلة أيام الحمل ، وكانت تذهب عنها الروع : .

فيالها من عظمة !

ويالها من لمعة مشرقة في قاموس الإعجاز تظل خالدة أبد الدهر .

لقطاتٌ خاطِفة

١ – حوراء السية .
٢ – بضعة النبي .
٣ – أمّ ابيها .
٤ – قدّيسة .

حوراء انسية

الانسان : روح ومادة :

في الروح إشراق . : . وفي المادة ظلمة !

فاذا أخضعت اشراقة الروح قوام الانسان لسيطرتها ووجهتها الوجهة التي تريد كانت العظمة والشموخ والكمال :

أما اذا سيطرت ظلمة المادة على زمام الأمر ووجهت الانسان وطاقاته حيث تشاء كان التردّي والتسافل والانحطاط .

اشراقة الروح ، ونور الايمان ، وشعلة العقيدة : : . مظاهر حية للتعالي الذي يطمح فيه الكثيرون ، ويرغبون السير في طريقه ، لكن هذا الطريق يضيق شيئاً فشيئاً حتى لا يستوعب - في قمته - إلا أناساً معدودين ، هم قادة الانسانية .

والزهراء من أولئك المعدودين ، فقد كانت الى جانب إنسانيتها تحمل كل صفات الملائكة ، وسمات الحور العين :

كانت إنسانة : : . وكانت حوراء :

ولقد قال أبوها العظيم صلى الله عليه وآله : « خلق الله نور فاطمة قبل أن يخلق الأرض والسماء .

فقال بعض الناس : يا نبي الله فليست هي إنسية ؟ !

فقال : فاطمة حوراء إنسية » (١) .

ومن علائم الحور العين أنها لا تطمث ، فقد قال تعالى : « لم

---

(١) محمد تقي سبهر : ناسخ التواريخ ج ٣ / ١٣ ، قم - ١٢٧٨ :

يطمثهن انس قبلهم ولا جان » (١) ، وكذلك الزهراء فانها كانت طاهرة من الحيض والنفاس ، وقد أجمع المسلمون على أنها لم تر حيضاً ولا نفاساً .

. . . وهذه ميزة فريدة امتازت بها على بنات حواء ، تذكر لها بفخر واعتزاز .

---

(١) سورة الرحمن

بضعة النبي

حب الرجل لأطفاله أمر غريزي لا يحتاج الى برهان ، وهو نتاج العاطفة التي تذكو في نفس كل فرد ، فتدفعه لتحمّل المشاق والمتاعب في سبيل أولاده ، والسهر عليهم ، والسعي لدفع كل ما يؤلمهم عنهم .

هذا الحب ليس على درجة واحدة عند الآباء ، بل إنه يختلف بحسب الأفراد ، فهناك العاطفة الضعيفة ، والحب المتزن ، والحب المفرط ، والكلف . . . ولكنه في جميع هذه الحالات يظل معبراً عن غريزة انسانية فعالة .

والحب المفرط يكون ناتجاً من أحد أمرين :

أ - الجهل : وهذا يؤدي الى تجاوز الحدود المعقولة بالسماح للطفل في فعل ما يشاء وترك ما يشاء ، حتى او خرج على الآداب والنواميس الاجتماعية السائدة . هذا النوع من الحب مذموم جداً . . وهو في الحقيقة عداء في لباس الحب .

ب - الوعي لمدى اتساع مواهب الطفل ، وإدراك عمق أسس شخصيته في هذه الصورة يكون الإفراط في الحب أمارة على احترام تلك المواهب وتقدير تلك الشخصية ، وهو يساعد على ظهور كل القابليات المضمرة الى حيز الفعلية .

* * *

وبعد ، فلم يكن النبي صلى الله عليه وآله بالذي يتصوّر فيه الجهل أو العبث . .

ان كل حركة من حركاته كانت منبعثة من حكمة ودراية !

وكل خطة من خططه كانت مستندة الى وعي وادراك !

لم يكن بالذي تدفعه العاطفة الى اضفاء سمات على أشخاص ليسوا جديرين بها ، أو مدح أفراد بعبارات تكون أقرب الى الخيال من الواقع : انه الرسول الصادق الأمين ، وكفى فيه فخراً قوله عز من قائل : « وانك لعلى خلق عظيم »

أحبَّ الزهراء أيما حب ، وكلف بها أيما كلَف : وأعلن ذلك على رؤوس الأشهاد ، وكانت هي جديرة بكل ذلك المدح والإطراء : لقد قال عنها فيما قال :

« فاطمة بضعة مني ، فمن أغضبها فقد أغضبني » (١) :

وقال أيضاً :

« فاطمة بضعة مني ، يؤذيني من آذاها ويسُرني ما سرَّها (٢) .

وفي رواية أخرى :

« انما فاطمة بضعة مني يؤذيني من آذاها ، وينصبني من أنصبها » (٣)

وحق لها أن تنفرد بهذا اللقب ، فهي بضعة النبي حقاً ، أشبهته خلقاً ومنطقاً ، وواكبت رسالته منذ البدء ، فوعت من ذلك أشياء وأشياء . . . ثم استمرت تسند الإمتداد الطبيعي للرسالة في ظل الإمامة ، تسنده بكل ما أوتيت من حول وطول ،

وحق لها ان تكون سيدة نساء العالمين ، والبتول العذراء ، والطاهرة الزكية دون غيرها من بنات النبي (ص) :

---

(١) البخاري الجامع الصحيح ، نقلا عن القندوزي ينابيع المودة ص ١٧١ .

(٢) مسلم : الجامع الصحيح ، نقلا عن القندوزي : ينابيع المودة ص ١٧١ .

(٣) ابن حجر الهيثمي : الصواعق المحرقة ص ١٦٨ .

أم أبيها

وبلغ من حب الرسول صلى الله عليه وآله ، لابنته فاطمة أنه كان يكنّيها بـ (أم أبيها) :

إنه اليُتم يجعل من الطفل يحنّ إلى أنثى تحنو عليه بدل أمه : فقد توفيت (آمنة بنت وهب) أم النبي (ص) وهو طفل صغير ، فتعلق قلبه حينذاك بـ (فاطمة بنت أسد) أم علي عليه السلام :

لقد كان يناديها : يا أماه !

وعندما توفيت حزن عليها حزناً شديداً وسُمع يقول : ماتت أمي !

ورُزق (ص) فاطمة ، وكلما رآها ذكر فاطمة بنت أسد ، وتسلّى بابنته عنها ، وقد كنّاها بـ (أم أبيها) :

إنه الرسول العبقري . . . : لا يهب الألقاب عبثاً ، ولا يمنح الكنى تشهّياً ، وإنما هي الحكمة تضع الشيء في موضعه :

وسيّان في هذا العمود من النور ، المتطاول برأسه الى عنان السماء ، أن تكون (فاطمة) بنتاً لأبيها ، وأما له : : :

وسيّان في دوحة الشرف أصـــل وفرع ، ما دام الجميع يهب من إشعاعه وتدفقه ما يعجز الغير من اللحوق به :

قديسة

ولئن كانت « مريم » قديسة عند المسيحيين ،
فقديسة المسلمين « فاطمة » !

حجر الزاوية

١ ـ على عتبة الزواج .
٢ ـ في بيت الزوج .
٣ ـ المرأة الكاملة .
٤ ـ ثمار من دوحة الرسالة .
٥ ـ التربية الفاطمية .

على عتبة الزواج

والآن أصبحت الزهراء (ع) شابة يافعة ، تتوفر فيها كل عناصر النجاح في خوض تجربة تكاد تواجه جلّ بنات حواء . ٥ ٥

فالجمال المفرط ، والخُلق الفاضل ، والفصاحة التامة ، والبلاغة الراقية والشرف العريض ، والنسب المشرق ، وغـير ذلك من أغراض سياسية واجتماعية ، كانت مدعاة إقبال الكثيرين من الاشراف وغير الاشراف على مفاوضة النبي (ص) بشأن الزواج من ابنته الصديقة .

أما وقد كان من بين هؤلاء المتقدمين لطلب يد الزهراء عليها السلام من هو من الصحابة الذين ربمـا لا يشكّون في أن النبي (ص) سيوافق على مصاهرتهم إياه ، فذلك ما لا يحتاج إلى كثير من التأمل والتفكير ٥

لقد تقدم أبو بكر لخطبتها فكان جواب النبي (ص) له :

- أنتظر بها القضاء ٥

وتقدم عمر لخطبتها أيضاً ، فلم يكن جواب النبي (ص) له بالذي يختلف عن جوابه لصاحبه من قبل .

وتقدم لخطبتها آخرون : فقد ذكر مالك بن أنس أنه ورد عبد الرحمن ابن عوف وعثمان بن عفان الى النبي ، فقال له عبد الرحمن :

يا رسول الله تزوجني فاطمة ابنتك ، وقـد بذلت لها من الصداق مائة ناقة سوداء زرق الأعين محملة كلهـا قباطي مصر ، وعشرة آلاف دينار ؟ ! !

وقال عثمان :

وأنا أبذل ذلك ، وأنا أقدم من عبد الرحمن إسلاماً ! !

فغضب النبي من مقالتها ، فتناول كفاً من الحصى فحصب به عبد الرحمن وقال له : إنك تهول علي بمالك .

فتحول الحصى درّاً فقوّمت درة من تلك الدرر فاذا هي تفي بكل ما يملكه عبد الرحمن :

وهذا كان يبوء كل من تقدم لخطبة الزهراء بالفشل ، راجعين وقد علموا أن في الأمر سراً ستكشف عنه الأيام :

* * *

واستقر النبي والمهاجرون معه في المدينة : : .

وكانت الخطوة الأولى إقامة ركيزة إسلامية تكون منتدى للمسلمين ، ومجالا للانطلاق منه : فأمر النبي ببناء المسجد ، كما أمر ببناء دور من حوله له ولزوجاته ٥

وكان علي عليه السلام لا يزال في بيت النبي ، وهو الآن ذرف على العشرين ، وفي هذه السن تتفتح في نفس كل شاب براعم الغريزة الجنسية ويندفع - طبيعياً - الى البحث عن شريكة له في الحياة :

وقواعد الاسلام في الزواج تقوم على الكفاءة والتماثل بين الزوجين . علي ذلك البطل العملاق .

وهو ذلك المؤمن السابق الى الاسلام :

وهو ذلك الرجل المتحلّي بالفضائل والمُثل العليا ، والصفات الحميدة التي يُحسد عليها ، ويُشار اليه بالبنان فيها .

وهو في نفس الوقت ابن عم فاطمة الذي ينحدر واياها من سلسلة شريفة واحدة فمن يا ترى أكفأ منه لها ، ومنها له ؟ ! !

فما الذي كان يمنع علياً من أن يتقدم لخطبة ابنة عمه ؟

تقول بعض الروايات : كان يمنعه من ذلك قلة ذات اليد : . . :

وليست الكفاءة المفروضة بين الزوجين مادية حتى تستقر النفس الى مثل هذا التعليل ، خصوصاً وقد تضافرت الروايات على أن الله اختار علياً زوجاً لفاطمة ، واختارها زوجة له :

١ - ففي رواية عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال : « لولا أن الله تعالى خلق أمير المؤمنين علياً عليه السلام لفاطمة عليها السلام » (١) .

٢ - وفي رواية ابن مسعود عن النبي (ص) قال : « إن الله تبارك وتعالى أمرني أن أزوج فاطمة من علي » (٢) :

٣ - وفي رواية أخرى ينقلها الخوارزمي : « ان رسول الله (ص) خرج على أصحابه ووجهه مشرق كدائرة القمر ، فسأله عبد الرحمن بن عوف فقال : بشارة أتتني من ربي في أخي وابن عمي وابنتي بأن الله زوج علياً من فاطمة . . : » (٣) :

٤ - وفي حديث آخر : « ان جبرائيل جاء الى النبي (ص) فقال : ان الله يأمرك أن تزوج فاطمة من علي » (٤) .

إلى غير ذلك مما هو صريح في أن التزويج كان بأمر من الله ووفقاً لمشيئته .

• • •

نعم ، يستفاد من روايات أخرى ذكرها كل من ابن حجـــر في

---

(١) محمد بن يعقوب الكليني ، الكافي .

(٢) ابن حجر الهيثمي ، الصواعق المحرقة ص ١٠٧ :

(٣) المصدر السابق ص ١٥٢ :

(٤) القندوزي ، ينابيع المودة ص ١٧٦ :

(الصواعق المحرقة) وأبي داود السجستاني في (مسنده) والقندوزي في (ينابيع المودة) واحمد بن حنبل ، والحسن البصري أنه جلس أبو بكر وعمر في مسجد رسول الله (ص) ومعهما سعد بن معاذ الانصاري فتذاكروا أمر فاطمة الزهراء .

فقال أبو بكر : قد خطبها الأشراف من رسول الله ، فقال (ص) : إن أمرها الى ربها ، إن شاء أن يزوجها : وان علي بن أبي طالب لم يخطبها من رسول الله ولم يذكرها له ، ولا أراه يمنعه من ذلك إلا قلة ذات اليد ، وإله ليقع في نفسي أن الله ورسوله إنما يحبسانها عليه .

ثم أقبل أبو بكر على عمر بن الخطاب ، وعلى سعد بن معاذ فقال : هل لكما في القيام إلى علي بن أبي طالب حتى نذكر له هذا ، فان منعه قلة ذات اليد واسيناه وأسعفناه :

ثم خرجوا من المسجد فالتمسوا علياً في منزله فلم يجدوه ، وكان ينضح الماء ببعير كان له على نخل رجل من الانصار ، فانطلقوا نحوه ، فلما نظر اليهم علي عليه السلام قال :

ماوراؤكم وما الذي جئتم له ؟

فذكر له أبو بكر ماتحادثا عليه ورغبه في أن يتقدم لخطبة الزهراء من رسول الله (ص) :

عندئذ تغرغرت عينا علي بالدموع وقال : لقد هيجت مني ساكناً وأيقظتني لأمر كنت عنه غافلا : والله إن فاطمة لموضع رغبة ، وما مثلي قعد عن مثلها غير أنه يمنعني من ذلك قلة ذات اليد :

فقال أبو بكر : لاتقل هذا يا أبا الحسن فان الدنيا وما فيها عند الله ورسوله كهباء منثور :

تقول الرواية : عند ذلك توجه علي إلى النبي (ص) وكان في منزل

زوجته أم سلمة فدق الباب .

فقالت أم سلمة : من بالباب ؟

فقال لها رسول من قبل أن يجيب علي : قومي فافتحي له الباب ، وأُمريه بالدخول فهذا رجل يحبه الله ورسوله ويحبها :

فدخل علي : وفاتح النبي (ص) بشأن فاطمة :::

تقول أم سلمة : فرأيت وجه رسول الله يتهلل فرحاً وسروراً :

ثم قال رسول الله (ص) : إن الله عز وجل قد زوجها في السماء من قبل أن أزوجها في الأرض :

ومهما يكن من شأن هـذه الرواية فان مالا مجال لشك فيه أن الله اختار علياً لفاطمة ، ولا بد للاقدام على مثل هذا الأمر وتحققه من بوادر ومقدمات ربما كانت هذه المحاورات جزء منها .

• • •

وبكل ما للبساطة من معنى تم الزواج الميمون ، وكان الصداق درعاً حطمية باعها الامام عليه السلام بأربعمائة وثمانين درهماً ، وأتى بالمبلغ ووضعه بين يدي النبي (ص) :

وزع النبي المبلغ على النحو التالي : -

١٦٠ درهماً لشراء العطور

١٦٠ درهماً لشراء الثياب

٠٦٦ درهماً لمتاع البيت

٠٩٦ درهماً دفعها الى أم سلمه لتبقيه لديها

وكان أن كلف بلالا بشراء العطور :

كما أنه اختار هيئة لشراء الثياب والمتاع من بينهم أبو بكر وعمار ابن ياسر : فاشترت الهيئة الجهاز التالي : -

١ – قميص بسبعة دراهم !

٢ – خمار بأربعة دراهم !

٣ – قطيفة سوداء خيبرية !

٤ – سرير ملفوف بشريط من الخوص !

٥ – فراشان من خيش مصر حشو أحدهما ليف ، وحشو الآخر من صوف الغنم !

٦ – أربع مرافق (متكئات) من ادم الطائف حشوها (إذخر) وهو نبات طيب الرائحة :

٧ – ستر رقيق من الصوف !

٨ – حصير هجري !

٩ – رحى يد !

١٠ – مخضب من نحاس لغسل الثياب .

١١ – قربة صغيرة .

١٢ – قدح من خشب !

١٣ – قربة صغيرة لتبريد الماء :

١٤ – مطهرة (إناء مزفت) .

١٥ – جرة خضراء !

١٦ – كيزان من خرف :

١٧ – بساط من الجلد !

١٨ – عباءة قطوانية :

وحملت الهيئة هـذا الجهاز الى الرسول ، فلما عرض عليه جعل يقلبه بيده ويقول : بارك الله لأهل البيت (١)

---

(١) الشيخ عباس القمي ، بيت الأحزان ، ص ١٧ .

وفي رواية اخرى أنه قال : « اللهم بارك لقوم جل آليتهم الخزف » (١)
أما الإمام عليه السلام فقد اقتصر إعداده لبيت الزوجية على مايلي :

١ – فرش حجرة النوم بالرمل الناعم :
٢ – نصب خشبة من حائط الى حائط .
٣ – اهاب كبش ومخدة ليف وضعها على الأرض :
٤ – منشفة علقها على الحائط :
٥ – وضع على الارض قربة ماء ومنخلا لنخل الدقيق (٢)

• • •

هـــذه الصورة الناصعة من تزويج الزهراء تنقلنا الى المبدأ الاسلامي العظيم في التخفيف عن كاهـل الأزواج بالنسبة الى المهور والإعداد لبيت الزوجية ، وهو الحل الحاسم لكثـــير من المشاكل الجنسيـة التي يضج العالم المتمدن منها :

أجل ! بهذه الصورة الساذجة تم التزويج وبقي الامام عليه السلام طيلة شهر لايذكر اسم فاطمة أمام رسول الله حياء :

وذات يوم اجتمعت نساء النبي صلى الله عليه وآله عند الامام عليه السلام ، وقلن له : ألا نطلب لك من رسول الله دخول فاطمة عليك ؟ فقال لهن : افعلن :

فدخلن على رسول الله ، قالت أم أيمن : يارسول الله لو أن خديجة باقية لقرت عينها بزفاف فاطمة ، وإن علياً يريد أهله ، فقر عين فاطمة ببعلها واجمع شملها وقر عيوننا بذلك :

وما ان سمع النبي صلى الله عليه وآله باسم خديجة حتى تغرغرت عيناه

---

(١) عبد المجيد لطفي ، الامام علي رجل الاسلام المخلد ، ص ٦٠.
(٢) المصدر السابق ص ٦٠ .

بالدموع ، وأن لها أنة ثم قال : خديجة !!

وأين مثل خديجة ؟!!

صدقتني حين كذبني الناس ، وآزرتني على دين الله ، وأعانتني عليه بمالها - إن الله عز وجل أمرني أن ابشر خديجة ببيت في الجنة من قصب الزمره ولا صخب ولا نصب .

ياله من وفاء تام لزوجته التي قام الدين في أحد عماديه على مالها ، وفي العماد الآخر على سيف ابن عمه علي عليه السلام !!

ثم قال صلى الله عليه وآله : مابال علي لايطلب مني زوجته ، فقد كنا نتوقع ذلك منه .

فقال علي عليه السلام : الحياء يمنعني يارسول الله .

عند ذاك التفت النبي الى النساء وقال : من هاهنا ؟

فقالت أم سلمة : أنا أم سلمة ، وهذه زينب ، وهذه عائشة ..، الخ

فقال رسول الله (ص) : هيئوا لابنتي وابن عمي في حجرتي بيتاً ، فأعدت أم سلمة غرفتها للعروسين .

ثم أمر رسول الله علياً بأن يصنع لأهله طعاماً فاضلا ، وقال له : من عندنا اللحم والخبز ، وعليك التمر والسمن .

فاشترى الامام عليه السلام التمر والسمن وأمر الرسول صلى الله عليه وآله بذبح كبش سمين ، وخبز خبزٍ كثير ، ثم حسر عن ذراعيه ، وجعل يشدخ التمر في السمن حتى اتخذه حيساً ، فاجتمع من ذلك طعام كثير ، ثم قال ياعلي ادع من أحببت .

فأتى الامام عليه السلام الى المسجد وهو مشحون بالصحابة ، فكره أن يدعو قوماً دون قوم ، فصعد على ربوة ، وقال : أجيبوا الى وليمة فاطمة .

فأقبل الناس ارسالا ...

يقول الامام عليه السلام : فاستحييت من كثرة الناس وقلة الطعام، فعلم رسول الله (ص) ما تداخلني فقال : ياعلي إني سأدعو الله بالبركة .

فأكل القوم عن آخرهم وقد بلغوا أربعة آلاف دون أن ينقص من الطعام شيء .

ولم ينس الرسول (ص) زوجاته ، بل دعا بالصحاف فملئت ووجه بها إلى منازلهن ، ثم أخذ صحناً وجعل فيه طعاماً وقال : هذا لفاطمة وبعلها .

* * *

كانت الشمس ترسل آخر أشعتها الذهبيـــة الى الأرض ، حين دعا النبي صلى الله عليه وآله أم سلمة ، وقال لها : هلمي فاطمة .

فانطلقت أم سلمة وأتت بها وهي تسحب أذيالها ، وقد تصببت عرقاً حياء من والدها العظيم فعثرت ، فقال لها أبوها بكل حنان ودفء : أقالك الله العثرة في الدنيا والآخرة .

وحان موعد الزفاف فأتى النبي (ص) ببغلته الشهباء وثنى عليها قطيفة وقال لفاطمة : إركبي ، وأمر سلمان أن يقود بها ، ومشى هو خلفها ومعه حمزة وجعفر وعقيل وبنو هاشم مشهرين سيوفهم ، وقدامها نساء النبي يرجزن مع بنات عبدالمطلب ونساء المهاجرين والأنصار :

كانت أم سلمة تقرأ :

سرن بعون الله جاراتي ... واشكرنه في كل حالات
واذكرن ما أنعم رب العلى ... من كشف مكروه وآفات
وقد هدانا بعد كفر وقد ... أنعشنـــا رب السماوات
وسرن مع خير نساء الورى ... تفدى بعمات وخالات
بنت من فضله ذو العلى ... بالوحي منه والرسالات

أما عائشة فكانت تنشد :

يالسوة استترن بالمعاجر	واذكرن مايحسن في المحاضر
واذكرن رب الناس قد خصنا	بدينه مع كل عبد شاكر
والحمد لله على إفضاله	والشكر لله العزيز القادر
سرن بها والله أعلى ذكرها	وخصها منه بطهر طاهر

وأخذت حفصة تنشد :

فاطمة خير نساء البشر	ومن لها وجه كوجه القمر
فضلك الله على ذا الورى	بفضل من خص بأي الزبر
زوجك الله فتى فاضلا	أعني علياً خير من في الحضر
فسرن جاراتي بها انها	كريمة بنت عظيم الخطر

وقالت معاذة أم سعد بن معاذ :

أقول قولا فيه مافيه	وأذكر الخير وأبديه
محمد خير بني آدم	مافيه من كبر ومن تيه
بفضله عرفنا رشدنا	فالله بالخير يجازيه
ونحن مع بنت لبي الهدى	ذي شرف قد مكنت فيه
في ذروة شامخة أهلها	فما أرى شيئاً يدانيه

وكانت كلما تقرأ إحداهن تردد البواقي أول بيت من الرجز ويكبرن الى أن دخلن الدار : وفي دار الزوجين أنفذ الرسول الي علي فدعاه ، ثم هتف بفاطمة وأخذ علياً بيمينه وفاطمة بشمالها ، ووضع يدها في يد علي ، ثم قال: اذهبا الى بيتكما جمع الله بينكما ، وأصلح بالكما ، استودعكما الله .

ثم أغلق عليهما الباب :..

في بيت الزوج

في بيت فاطمة تظهر صورة رائعة لمواساة الفقراء ، فقد أبت إلا أن يكون بيتها على مستوى من البساطـــة لا يجعل عيون الطبقة الضعيفة من المجتمع عالقة به .

ومع أنها بنت النبي وبضعته الطاهرة ، فقد بدأت العمل في البيت من أول يوم ، ودأبت على ذلك مـــدة طويلة ، الى أن نالها من النصب ما جعلها ترجو النبي صلى الله عليه وآله في استئجار خادم لها ، تساعدها في شؤون المنزل ، فأنفذ لها جارية للخدمة سمّاها (فضة) .

تقول بعض الروايات : إنها استقت بالقربة حتى أثر في صدرها ، وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها ، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها .

واذ حصلت على خادمة فانها لم تخلد الى الراحة ، بل ظلت تعاون (فضة) حتى جعلت الخدمة لها يوماً ولخادمتها يوماً . . . .

الله لروعة الإنسانية والرأفة في الإسلام !

هذه ابنة الرسول الأعظم تأبى أن تترك العمل كلـه على خادمتها ، وتربأ بنفسها أن تكون السيدة العاطلة التي لا يهمها سوى تزيين نفسها ، واعداد الملابس الفاخرة للاشتراك في المجالس والمناسبات .

إنها – بذلك – تضرب أروع المثل للزوجة الوفية لزوجها ، والشاعرة بمسؤوليتها ، والمواسية لمن هي دونها .

• • •

وبلغ من وفائها لزوجها أيضاً انها كانت تخفي آلامها عنه ، ولا تشكو اليه ما يهدّد استقرارها وطمأنينتها من غصص تتجرعها على مضض .

تخنقها العبرة : :: ولكن ما أن يفاجئها زوجها الإمام ، حتى تبتسم له ، وتهشّ وتبش :

تنهش الهموم قلبها الرقيق . . : ولكنها تتمالك على نفسها من أن تتحسر بآهة أو تبرز أنّة :

كل ذلك رعاية لعواطفه من أن تُجرح ، ولآلامه من أن تزداد ، وللرحب من أن يضيق عليه !

ومن هنا ينكشف الزيف في الفرية التي اختلقها البعض للطعن في سلوك الإمام مع الزهراء أو العكس : . : :

ذلك أنهم زعموا أن مشادّة حصلت بين الزهراء والإمام عليها السلام أدت الى هجر الإمام لها ، وخروجه الى حوالي المدينة ، ثم استلقائه على الرمل ، واطلاع النبي صلى الله عليه وآله على ذلك ، وخروجه للبحث عن الإمام ، وأخيراً العثور عليه نائماً على الأرض والعرق يتصبب من وجهه فيناديه : قم ، يا أبا التراب ، ويقوم الإمام عليه السلام وتنتهي الفرية بمصالحة النبي بين الزوجين .

هذه القصة – كأي حدث تأريخي آخر – قابلة لأن توضع على طاولة التشريح من جانبين : من الخارج ، ومن الداخل (١) .

أما الخارج : فهو عبارة عن السند ، والنص :

واما الداخل فهو عبارة عن عنصر الزمان ، والمكان ، والإنسان :

ولذلك فلابد من فحص كل رواية يشك في صحتها للتأكد من سلامتها ، هذا الفحص يتعلق تارة بالسند ، وأخرى بالنص : ذلك أن من الضروري أن نستوثق من حالة الرواة لنعرف إن كانوا خليقين بالإعتماد عليهم من

---

(١) محمد مهدي شمس الدين : التاريخ الإسلامي منهجاً وأسلوباً ، مقال منشور في مجلة النجف : السنة الثانية / العدد الأول ص ١٤ :

حيث أمانتهم في النقل ووثاقتهم ، أو ان سلوكهم يجعلهم موضع شك من هذه الجهة :

هذا الأمر ضروري جداً ، فان احتمال كون الراوي منحازاً الى فئة سياسية معينة ، أو كذاباً ، أو ضعيف الحفظ يهدم أساس الرواية وتصبح عند ذاك فاقدة لدلالتها على المطلوب .

خصوصاً وأن كثيراً من الأفراد قد احترفوا الوضع في الأحاديث في فترات قديمة ، ويكفي أن نسمع أن ابن أبي العوجاء قال عن نفسه : « لقد وضعت في رواياتكم أربعة آلاف حديث حللت فيها الحرام وحرمت فيها الحلال » لندرك أهمية هذه المرحلة من منهج البحث .

هذا مايتعلق بالسند . أما النص فلا بد من التأكد من جهته ، لأن التاريخ الاسلامي لم يدون إلا في وقت متأخر ، وظلت الرواية تعتمد فترة طويلة من الزمن على النقل من الذاكرة ، ولذلك فان النص عرضة للزيادة والنقصان والتحريف دائماً . ولا يخفى أن أبسط تغيير في النص يؤدي الى قلب المعنى رأساً على عقب ، وعدم إفادة المعنى المقصود في الرواية .

أما الرواية من الداخل فانها تتكون غالباً من ثلاثة عناصر : -

الزمان ::

والمكان ::

والانسان ::

ولا بد للتأكد من صحة الرواية من هذا الجانب أن نرى هل الوضع الاجتماعي والحضاري السائد في الفترة التي تتحدث عنها الرواية ، وفي المكان الذي يفترض أن الأحداث قد وقعت فيه ، يتنافى أولايتنافى مع الصورة التي تقدمها الرواية .:: ثم التأمل في مدى انسجام ماتتحدث عنه الرواية مع طبيعة الشخص أو الجماعة التي تتحدث عنها الرواية ، وهل يمكن حسب

الموازين النفسية أن يقوم الشخص أو الجماعة المعينة بهذا النوع من النشاط ؟!

* * *

وإذا أردنا تطبيق هذا المنهج في النقد التاريخي على الرواية الآنفة الذكر فانا نجد : -

أولا : من الخارج:-

أ - السند :

ينتهي السند في هذه الرواية الى (أبي هريرة) ، وهو ذلك الوضاع الذي لم يتورع استجابة لميوله واهوائه السياسية من أن يكذب على الرسول في اكثر من اثنى عشر الف حديثاً : لقد هم عمر ابن الخطاب أن يضربه بالدرة مرة لأكاذيبه ، وفي روايته عن لسان الرسول الاعظم : أن الذبابة إذا سقطت في اناء ، فعلى الرجل أن يغمس الذبابة في الماء ثم يخرجها ويرمي بها ففي ذلك الشفاء (١) غنى عن شرح حاله :

بالسخف .

وباللفاهة :

وباللخبث : : : الرسول الأعظم أجل من أن يتكلم بمثل هذه الكلمات ، وهو القائل : (النظافة من الايمان) .

ب - النص :

ان انفراد أبي هريرة بهذا النص لايدع مجالا لمعرفة الزيادة أوالنقصان أو التحريف في النص ، لأن ذلك يحصل عند مقارنة نصين أواكثر

---

(١) محمود أبو رية : شيخ المضيرة أبو هريرة الدوسي:

ببعضها البعض ... لكن هذا الحادث - لو كان صحيحاً - لكان جديراً باهتمام الرواة ، لأنه يقصد منه النيل من شخصية الامام أمير المؤمنين عليه السلام ، فانفراد أبي هريرة بها يضعف في النفس الثقة والاطمئنان بصحة صدورها .

ثانياً : من الداخل :-

أولاً - الزمان والمكان :

الزمان : صدر الاسلام : والمكان : المدينة المنورة ، حيث المجتمع المحافظ الذي أخذت تعاليم الاسلام العظيمة تستقر في كل بيت ، وبدأ التزام غالبية المسلمين بمثل الاسلام وأخلاقه الفاضلة واضحاً تماماً في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وآله :

ومع هذه الصورة فان شقاقاً يحصل بين الامام عليه السلام والزهراء لايجد له مايسنده في مثل هذه الظروف :

ج - الانسان :

الانسان في هذه القرية هو علي ابن أبي طالب : رجل الاسلام المخلد ، وسيف الحق ، وخليفة النبي ، والامام المعصوم :

فكيف يتصور منه القيام بذلك ؟

ثم ان الزهراء عليها السلام إذا كانت تتمالك على نفسها من التظاهر بالألم والتعب أمام زوجها الوفي خوفاً عليه من أن يزداد همه وغمه ، كيف يعقل ان تتخذ من حوار اعتيادي بينها وبينه ذريعة لتشكوه الى أبيها العظيم ؟

هذه الملاحظات تكشف لنا - بوضوح - الزيف المقصود في هذه

الفرية ، والنفسية الحاقدة التى كانت تكن الكيد والشر لقائد الاسلام المظفر وامام المسلمين العظيم ... وهي ان أخذناها بمنظار أوسع تؤكد الحاجة الماسة الى مطالعة التاريخ الاسلامي بيقظة وحذر شديدين بغية استخراج الأحداث المختلقة منه ، وتجريد الوقائع التى سجلت طبقاً لأهواء الحاكمين من خلاله رجاء الانتهاء بعد ذلك الى صورة ناصعة عن تاريخنا المجيد .

المرأة الكاملة

ولئن قيل : ان في المرأة نقصاً طبيعياً ، يمنعها من مسايرة الرجل في رجاحة عقل ، وعمق تفكير ، وصلابة وثبات : : ، فذلك مالا ينطبق على الزهراء بحال ! ! !

فقد كانت الزهراء عليها السلام صورة فريدة للكمال الانساني ، في جانبه النسوي : : ، جمعت كل معاني العظمة والفضيلة والشرف والكمال :

صورة تمتاز بالاصالة ، أبدعتها يد الباريء القدير ، لتكون آية من آيات عظمته وجلاله ، فتبارك الله أحسن الخالقين :

لقد كانت خير بنت لأبيها : . .

كما كانت خير زوجة لزوجها : . .

وخير أم لأولادها . . .

تكونت شخصيتها من خيوط نيّرة كان مجد محمد صلى الله عليه وآله سُداها ، وعلياء خديجة لحمتها : . : وحَسبك شرف علي عليه السلام تلك الخيوط وأكسبها رونقاً وبهاء فجاءت زاهية عظيمة :

ومن مثل فاطمة في شرف مؤثل ، ومجد شامخ ، ونسب أصيل :

اجتمع في أبيها العظيم ، وأمها الزاكية ، وزوجها الطاهر ، وأبنائها الميامين مالم يجتمع لبشر قبلها ولا بعدها :

ومن أجـل ذلك كله ، كانت جديرة بأن تمثل القمّة في مستوى الكمال البشري في جانبه النسوي : : :

ومن أجل ذلك أيضاً ، سمّاها رسول الله صلى الله عليه وآله بسيدة نساء العالمين :

وإذ كانت سيدة نساء العالمين ، كانت سيدة نساء أهل الجنة أيضاً :
وحسبها أن يكون الذي يمدحها رسول الله (ص) ، فماذا بعد ذلك ؟
القلم يجف !
واللسان يكلّ !
والعين تُبهر !
والرؤوس تخضع إجلالا !

: . . : والكل يشير إلى سيدة النساء ! !

ثمار من دوحة الرسالة

غصن رطيب ، وعودٌ أهيف تفتح عن خمسة براعم ، سرعان أن قضت الاحداث على برعم منها صغير ، لم تتفتح أكمامه بعد ، وبقيت البراعم الأربعة تمثل كلّ ما في دوحة الرسالة من فروع ، وتمدّها بالفيض الغزير من الماء والغذاء .

وقد اختار الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لكل من هذه البراعم الخمسة اسماً ، فكانت الأسماء على التوالي : الحسن ، والحسين ، وزينب وأم كلثوم ، والمحسن :

(١) الحسن :

ما ان حلت السنة الثالثة للهجرة حتى ابتسم فجر يوم الخامس عشر من رمضان للمولود البكر في حياة الزهراء عليها السلام . . .

ذلك هو الحسن ، الذي استبشر به النبي صلى الله عليه وآله خيراً وتناوله بيده الكريمة فأذّن في أذنه اليمنى ، وأقام في اليسرى ، ثم قال لعلي :

بأي شيء سميت ابني ؟

قال : ما كنت أسبقك باسمه يا رسول الله .

فقال (ص) : ولا أسبق أنا باسمه ربي .

عندئذ أوحى الله الى جبرئيل أنه قد ولد لمحمد ابن فاهبط ، واقرأه السلام ، وهنّئه بولده ، وقل له : ان علياً منك بمنزلة هارون من موسى فسمّ هذا المولود باسم ابن هارون .

فنزل جبرئيل وهنأه من الله تبارك وتعالى وأمر أن يسميه باسم ابن هارون :

فسأله رسول الله : وما اسم ابن هارون ؟

قال : (شبر) في السريانية ، و (حسن) في العربية فسّماه حسناً :

* * *

استأثر الحسن عليه السلام بحب النبي صلى الله عليه وآله ، وقد بذل له الرسول الأعظم من العناية والرعاية مالا يقصر عن عناية أي أبٍ بأولاده الصلبيين .

ولعل في الصورة التالية ما يغني عن الاطالة :

« دعى النبي الى صلاة والحسن متعلق به ، فوضعه النبي (ص) مقابل جنبه وصلى . فلما سجد أطال السجود - يقول الراوي - : فرفعت رأسي من بين القوم فاذا الحسن على كتف رسول الله صلى الله عليه وآله فلما سلّم قال له القوم : يا رسول الله ، لقد سجدت في صلاتك هذه سجدة ما كانت تسجدها ، كأنما يوحى اليك . فقال : لم يُوحَ إليّ ، ولكن ابني كان على كتفي ، فكرهت أن أعجله حتى نزل » (١) .

وقال (ص) فيه وفي أخيه : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » .

كما قال فيهما : « الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا » .

وهكذا شبّ الحسن ، ونما في حجور طاهرة ، وتلقى من جده العظيم وأبيه الكبير من العلوم والآداب والتجارب ما أهّله للقيام بعبء الامامة بعد استشهاد الامام علي عليه السلام .

كان يمتاز بهيبة عظيمة حتى قال عنه واصل بن عطاء : « كان للحسن

---

(١) محمد باقر المجلسي : بحار الأنوار ج ١٠ / ٨٢ :

ابن علي سيماء الأنبياء وبهاء الملوك : ما بلغ أحد من الشرف بعد رسول الله (ص) مثل ما بلغ الحسن : كان يبسط له على باب داره فاذا خرج وجلس على البساط انقطع الطريق فما يمر أحد من خلق الله إجلالاً له فاذا قام ودخل بيته مرّ الناس واجتازوا : ولقد رأيته في طريق مكة ماشياً فما من خلق الله أحد رآه إلا نزل ومشى ، حتى رأيت سعد بن أبي وقاص يمشي » :

وما ان تصدى لشؤون الخلافة حتى كان معاوية بن أبي سفيان المعارض الأول له ::: ذلك الرجل الذي تنفس الصعداء لتوّه بعد أن نجح الخوارج في اغتيال الامام أمير المؤمنين على يد (عبد الرحمن بن ملجم) ، وقد ظن أنه تخلص - بوفاته - من الحواجز التي تعترض طريقه في تحقيق خططه وأساليبه اللا إسلامية :

فما أن وجد في الحسن عليه السلام استمرار النور المحمدي ، والايمان العلوي ، والطهارة الفاطمية حتى أخذ يخطط لمعارضته :

لقد استمر في شن الحملات المسعورة ضد والده الذي بذل كل ما يملك في سبيل مرضاة الله ونشر دينه ، فكان أن نسب اليه مالا يجرؤ القلم على التصريح به . ومن البديهي أن يكون هذا الأمر مما يثير سخط الإمام الحسن عليه السلام :

وعمد الحسن عليه السلام أول ما عمد الى ردع معاوية عن اضطهاده للعلويين ، وحملة التهم والدعايات الباطلة التي يشنها ضد أبيه الإمام صارفاً على ذلك من بيت المال . . : وما كان من معاوية إلا التمادي في طغيانه والإستمرار في جرائمه ، مستهزئاً باستنكار الثلة الباقية من الصحابة المؤمنين وغير آبه بمعارضة المعارضين وإنكار المنكرين .

وهل يتوقع ممن حمل أبوه على الإسلام كرهاً أن يكنّ الخير للاسلام والمسلمين ؟ ! .

وهل يستبعد على مثل معاوية – وهو ذلك الذي لم يذق طعم الايمان – أن يرتكب كل ما يخالف القرآن وسنة رسول الله (ص) بدافع من حب الإمارة والزعامة ؟ ! .

• • •

ولما لم تُجدِ الأساليب السلمية مع معاوية في صرفه عن أهدافه المشؤومة : . :

ولما بدأ معاوية محاولاته التخريبية في شق عصا المسلمين ، وتفتيت شملهم والإغارة على بعض المدن والقرى الوادعة : . :

فكر الحسن عليه السلام في إعلانها حرباً شعواء عليه ، فطلب منادي الكوفة لينادي في المسلمين : (الصلاة جامعة) ! فاجتمع الناس وخرج الحسن عليه السلام فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد ، فان الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرهاً ، ثم قال لأهل الجهاد : اصبروا ان الله مع الصابرين ، فلستم أيها الناس نائلين ماتحبون إلا بالصبر على ماتكرهون .

« إنه بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير اليه فتحرك ، لذلك اخرجوا – رحمكم الله – إلى معسكركم في النخيلة حتى لنظر وتنظرون ونرى وترون » . :

وخرج الحسن عليه السلام بنفسه ، وعبئت الجيوش ، ووزعت القيادات وسار الجيش بعدد قوامه اثنا عشر ألفاً نحو معاوية :

وقبل بدء القتال بليلة ، استطاع معاوية بماله من المكر والخداع ، من إغراء عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب – وكان على رأس أربعة آلاف

من الجيش - بأن يسري اليه لقاء مبلغ مليوني دينار دفع اليه نصفها سلفاً وأجل النصف الآخر .

هذه الخيانة أحدثت ثلمة كبيرة في جيش الامام الحسن عليه السلام وتلتها خيانات أخر أوهنت الجيش وأضعفت النفوس ::: وبالرغم من إصرار الحسن على الحرب فان البقية الباقية سلت السيوف عليه مطالبة إياه بمصالحة معاوية .

وهكذا بايع الإمام الحسن عليه السلام معاوية على بنود معينة كان يرمي من ورائها إلى تحقيق المصلحة العامة للمسلمين وحقن دمائهم ::: ووضعت بنود المعاهدة على الصورة التالية (١) ووقع عليها الطرفان .

المادة الأولى :

تسليم الأمر إلى معاوية على أن يعمل بكتاب الله وبسنة رسوله وبسيرة الخلفاء الصالحين :

المادة الثانية :

أن يكون الأمر للحسن من بعده ، فان حدث به حدث فلأخيه الحسين وليس لمعاوية أن يعهد به إلى أحد :

المادة الثالثة :

أن يترك سب أمير المؤمنين والقنوت عليه بالصلاة ، وأن لايذكر علياً إلا بخير .

المادة الرابعة :

استثناء مافي بيت مال الكوفة ، وهو خمسة ملايين فلا يشمله تسليم الأمر : وعلى معاوية أن يحمل الى الحسن كل عام مليوني درهم ، وأن يفضل بنى هاشم في العطاء والصلات على بنى عبد شمس : وان يفرق في

(١) الشيخ راضي آل ياسين : صلح الحسن ، ص ٢٥٢ ، الطبعة الأولى :

أولاد من قتل مع أمير المؤمنين يوم الجمل ، واولاد من قتل معه بصفين مليوني درهم ، وأن يجعل ذلك من خراج دارا بجرد .

المادة الخامسة :

إن للناس آمنون حيث كانوا من ارض الله ، في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم ، وأن يؤمن الأسود والأحمر ، وأن يحتمل معاوية مايكون من هفواتهم وأن لا يتبع أحداً بما مضى ، وان لايأخذ أهل العراق بأخيه .

وأمان أصحاب علي حيث كانوا ، وأن لا ينال أحـداً من شيعة علي بمكروه ، وأن أصحاب علي وشيعتـه آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم وان لايتعقب عليهم شيئاً ، ولا يتعرض لأحد منهم بسوء ، ويوصل الى كل ذي حق حقه وعلى ما أصاب أصحاب علي حيث كانوا :

وعلى أن لايبغي للحسن بن علي ، ولا لأخيه الحسين ، ولا لأحد من أهل بيت رسول الله ، غائلة سراً ولا جهراً ، ولا يخيف أحـداً منهم في أفق من الآفاق :

* * *

وانتهت الحرب بتوقيع هذه المعاهدة ، ورجع كل الى مقره :

هذه البنود كانت كافية في أن تحدد معاوية وتمنعه من الاستمرار في طغيانه ، والتمادي في غيه : ولو كان وفى ببعضها - لاجميعها - لكان الربح بجالب الحسن عليـه السلام ، والخسارة بجانبه : وهذا هو الذي دفعـه إلى أن ينقض العهود ويعلن على رؤوس الأشهاد :

(أعطيت الحسن بن علي عهوداً ومواثيق ، وهاهي كلها تحت قدمي)

* * *

ظل الامام الحسن عليـه السلام يقاسي بعـد ذلك الأمرين من سلوك معاوية للذي كان ينسج المؤامرات ضده في كل فرصة ومناسبة ::: وانتهت

هذه المحاولات باذاء من السم بعث به الى زوجة الامام الحسن (جعدة بنت محمد الاشعث) واغراها بكثير من المال ، وضمن لها أن يزوجها (يزيداً) انهـــه .

فسقت الحسن السم ، فسرى ذلك في أحشائـــه وفتت كبـــده حتى أخذ يقيء قطعاً من كبده :

ودخل عليـــه أخوه الحسين عليـه السلام ، فقال له : كيف أنت يا أخي ؟

قال : كيف يكون من قلب كبده في الطست ،

فقال : من فعل بك ، لأنتقم ؟

قال : لاعليك ، غداً أخاصمه عند الله :

* • •

(٢) الحسين :

واستقبلت المدينة المنورة في العام الرابع للهجرة ، وفي يوم الثالث من شعبان الوليد الجديد للزهراء عليها السلام ، وسماه النبي صلى الله عليه وآله (حسيناً) :

وقد هنأ الله نبيه بحمل الحسين وولادته ، كما عزاه بقتله ومصابه : : .

علقت الزهراء به بعد أخيه الحسن ، وظلت تبـــذل لـه من الحنان والرأفة ، علها تجبر بذلك قسوة المصير المؤلم الذي سيلاقيه :

وكان النبي صلى الله عليه وآله يحبه حباً جماً .. :

كان يقول فيه : « انه سيد شباب أهل الجنة »

وقال أيضا : « حسين مني وأنا من حسين »

وكما قال في الزهراء أنها بضعته ، قال عن الحسين : « حسين بضعة مني »

وبهـذا الصدد تقول أم الفضل بنت الحرث - مرضعة الحسين - :
دخلت على رسول الله (ص) فقلت : يارسول الله رأيت حلماً منكراً الليلة !

قال (ص) : وما هو ؟

قلت : رأيت قطعة من جسدك انقطعت ووضعت في حجري .

فقال (ص) : خيراً رأيت ، تلد فاطمة غلاماً يكون في حجرك .

• • •

لقد كان رسول الله (ص) يبذل لولديه الحسن والحسين الكثير من العطف والاحترام أمام الملأ العام من المسلمين لاشعارهم بمالهما من المنزلة عند الله . فقد روي أنه كان جالساً ذات مرة ، واقبل الحسن والحسين ، فلما رآهما النبي قام لهما ، واستبطأ بلوغهما اليه ، فاستقبلهما وحملهما على كتفيه وقال : « نعم المطي مطيكما ، ونعم الراكبان انتما » (١)

وهكذا يصور لنا الرواة مدى عطف النبي (ص) تجاه الحسين ممايجعلنا لدرك جسامة الوزر الذي تحملته الأمة في موقفها تجاهه بعد أن آل الأمر اليـه :

تقول أم الفضل - مرضعة الحسين - :

« أخذ مني رسول الله صلى الله عليه وآله حسيناً أيام رضاعه فحمله فأراق ماء على ثوبه ، فأخذته بعنف حتى بكى : فقال (ص) : مهلا يا أم الفضل ، إن هذه الاراقة الماء يطهرها ، فأي شيء يزيل هذا الغبار عن قلب

---

(١) محمد باقر المجلسي : بحار الأنوار ، ج ١٠ / ٨٠ .

الحسين ؟ » (١)

* * *

درج الحسين عليه السلام في ذلك البيت الطاهر على الايمان والاخلاق الفاضلة ، ورضع لبان التوحيد والاخلاص من أمه الزهراء عليها السلام .

شهد الأحداث المؤلمة التي كادت تقضي على الاسلام ، وعاشها بوعي وتأمل :

فقد شهد في التاسعة من عمره وفاة جده العظيم ، وما جرى بعد ذلك من نزاع على الخلافة ، وإبعاد قطب الرحى عنها حيث أخذت تدور على غير هدى :

وشهد بعد ذلك وفاة أمه الزهراء عليها السلام ، ودفنها سراً ليلا .

ثم شهد الردة التي تمثلت في قيام (معاوية) وغيره في وجه أبيه الامام ، والتي أدت الى حرب الجمل ، وصفين ، والنهروان : : . والتي انتهت باغتيال أمير المؤمنين عليه السلام :

وكانت الحادثة القريبة الى خاطره ، تآمر معاوية على حياة أخيه الحسن وماهي إلا فترة وجيزة حتى قضى معاوية نحبه مستخلفاً على الأمة ابنه الخليع (يزيد) ، الذي كان يلعب بالكلاب والقرود ، ويشرب الخمر ويجلب القيان للغناء ، والذي بلغ من التسافل حداً جعله يستسيغ وقوف الأخطل - الشاعر الأموي - أمامه قائلا :

ودينك حقاً كدين الحمار بل أنت أكفر من هرمز !

* * *

لقد كان معاوية ممهداً الطريق لابنه ، آخذاً بالبيعة له من كبار القادة والأمراء ، فحاول هذا منذ تنزّيه على مقام الخلافة أن يخضع الحسين (ع)

(١) عباس القمي : هدية الأحباب ص ١٧٦ :

أيضاً لأمره فيكسب التأييد الكامل في الحجاز أيضاً :

وهيهات على الحسين (ع) أن يعترف ليزيد بحق في الخلافة ، وقد غصبها أبوه من أهلها ، وصيّرها الى من لا عهد له بايمان أو اخلاص ، وكأنها ملك خاص له يورّثه من يشاء :

وإذا كان الحسن يرى من المصلحة العامة أن يصالح معاوية ، فذلك مالا يمكن أن يرضخ له الحسين ، فان تجربة نقض العهود التي صدرت من (الأب) أقوى احتمالا وأقرب وقوعاً في (الابن) :

ولم يفت على الحسين عليه السلام هذا الأمر حين قال : « والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد » :

ومذ تحقق ليزيد استحالة أخـذ البيعة من الحسين سلمياً ، لجأ الى التهديد بقتله ، فأوعز إلى ولاته بالقبض عليه حتى لو وجـدوه متعلقاً بأستار الكعبة !

وإزاء هذا الموقف فقد قرر الحسين عليه السلام الخروج الى العراق حيث أنصار أبيه في الكوفة ، وقد بعثوا اليه بتأييدهم المطلق له ، وعدم خضوعهم لحكم يزيد ، وأنهم لا يرضون عنه بغيره بديلا :

بعث الحسين سفيره اليهم ، ثم توجـه بأهله وعياله وجمع من بني هاشم الى الكوفة . . : وكان سفيره الى الكوفة ابن عمه (مسلم بن عقيل) وما أن بلغها مسلم حتى رحبت به الجماهير الناقمة على معاوية وابنـه ، وبذلت له البيعة والطاعة ، وكاد الأمر يتم للحسين :

وما كان من يزيد إلا أن يتخذ التدابير الحاسمة تجاه ما يهدد كرسيه فبعث بالأوامر المشددة الى واليه على الكوفة (عبيد الله بن زياد) ، وعززه بجيش قوي بلغ عدده السبعين ألفاً .

واستطاع والي يزيد من السيطرة على الأمور ، ومعاقبة كل من سالد

مسلماً في أخذ البيعة للحسين ، وقبض على مسلم وضرب عنقه وألقى بجسده من على سطح قصر الامارة .

ولم تصل أنباء الانتكاسة الى الحسين عليه السلام ، إلا وقد قطع الشوط الأكبر من الطريق ، فواصل السير نحو الكوفة ، بينما صدته قوات من جيش يزيد وأجبرته على النزول في (كربلاء) :

• • •

وعلى أرض الطف التقى الفريقان :

فريق يمثل الايمان والصدق والاستقامة ، والإباء عن الضيم ، والتمسك بالثقلين اللذين خلفهما النبي (ص) فيهم . . . وهؤلاء لا يتجاوزون الاثنين وسبعين رجلاً .

وفريق آخر يمثل النفاق والانحراف والمكر ، والطمع في المادة ، والسعي لثارات قتلى بدر وحنين . . . وهؤلاء يبلغ عددهم سبعين الفاً .

ودارت المعركة في اليوم العاشر من محرم عام ٦١ للهجرة . . . وانتهت المأساة بقتل الحسين عليه السلام وأصحابه البررة ، ثم قطع رؤوسهم وحملها على الرماح ، ونقلها الى الشام حيث (يزيد) . هذا بالاضافة الى سبي بنات الرسالة وحملهن أسيرات الى (الخليفة الأموي) !

وإنها لمن الوقاحة أن يُقتل ابن رسول الله تحقيقاً لنزوة من يدّعي أنه خليفة رسول الله !

وإنه لمن العقوق أن تسبى بنات رسول الله مع ذلك الوضع المزري ويُحملن أسيرات الى ابن هند !

وإنه لكفر ما بعده كفر ، والحاد ما بعده الحاد ، وردّة ما بعدها ردّة . . . أن تُساق بنات الوحي الى مجلس (يزيد) وقد وضع رأس أبي عبد الله الحسين عليه السلام في طست من الذهب وبيده خيزرانة يضرب

بها ثنايا ابن الرسول ويقول :

لعبت هاشم بالملك فـلا خبر جاء ولا وحي نزل

لست من (خندف) ان لم أنتقم من بني (أحمد) ما كان فعل !

فيقوم أحدهم ويقول : مهلاً يا يزيد ، فلطالما رأيت رسول الله (ص) يضع فمه الطاهر على هـذا الفم الذي تتناوله بالخيزران ، ويقبّله . . . فيكون ردّ الفعل إيغالا في الوحشية والبربرية .

ومن يزيد ؟

أليس ابن هند التي التقضّت على الشهيد (حمزة) عم النبي ، وأخرجت كبده ، ثم أخذت تمضغه مضغاً ؟ !

• • •

وتمر الأعوام والقرون والحسين خالد خلود الحق والطهر والإباء ، ويزيد تطمره زوايا النسيان تارة ، واللعن والذكر السيء تارات ! ! !

تمر القرون . . . ولا زالت الألوف من الحناجر - بل الملايين - تضج حول مرقد الحسين الطاهر وهي تهتف :

« أشهـد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة ، لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها ، ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها » .

• • •

(٣) زينب :

في العام السادس للهجرة ، حيث شهدت المدينة المنورة استقرار الدعوة الاسلامية وتركز دعائمها . . انفلق البرعم الثالث من براعم الزهراء عليها السلام عن وليدة جـديدة ، سماها الرسول الأعظم صلى الله عليـه وآله

(زينب) إحياء لذكرى ابنته الراحلة (زينب) التي ماتت في طريقها إلى دار الهجرة عندما نخسها أحد المشركين في بطنها وكانت حاملا فأسقط حملها ، وذلك بعد أن فرق الاسلام بينها وبين زوجها (أبي العاص بن الربيع) :

• • •

وأقبل المهنئون من بني هاشم والصحابة يباركون هذه الزهرة المتفتحة في بيت الرسول ، تنشر في المهد عبير المنبت الطيب ، وتلوح في طلعتها المشرقة ووجها الصبيح ، ملامح آباء وأجداد لها كرام .

« ونرمق زينب وهي تدرج في ساحة البيت الشريف ، محوطة برعاية خاصة من جدها العظيم ، وعطف سابغ من آلها الكرام ، فنراها على البعد صبية حلوة في حضانة (الزهراء) تتلقى عنها الدروس الأولى في الحياة ، فاذا جاوزت دور الحضانة ألفت أمامها أعظم من أنجبتهم الجزيرة في زمانها من المعلمين ، جدها صاحب الرسالة ، وأباها الفارس أمير البيان ، والعلماء الفقهاء من الصحابة الكرام :

ولم تظفر صبية من لداتها - فيما نحسب - بمثل ماظفرت به هي في تلك البيئة الرفيعة من تربية عالية ، وكان هذا كله بحيث يرضي (زينب) في صباها ويتيح لنا أن نراها مرحة مزهوة ، ولكنها لاتكاد تشب عن الطوق حتى يقال أنها عرفت النبوءة الأليمة : قيل انها كانت تتلو شيئاً من القرآن الكريم بمسمع من أبيها ، فبدا لها أن تسأله عن تفسير بعض الآيات ففعل ثم استطرد - متأثراً بذكائها اللامع - يلمح إلى ماينتظرها في مستقبل أيامها من دور ذي خطر : ولشد ما كانت دهشته حين قالت له زينب في جد رصين :

- أعرف ذلك يا أبي :: لقد أخبرتني به أمي ، كيما تهيئني لغدى :

ولم يجد الأب مايقول ، فأطرق صامتاً وقلبه يخفق رحمة وحناناً »(١)

• • •

وما أن بلغت (زينب) مبلغ الزواج حتى اختار لها أبوها بين المتقدمين لخطبتها من بني هاشم وقريش ، ابن أخيه (عبدالله بن جعفر بن أبي طالب) الذي ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه اليها فكان أول من ولد بها من المسلمين .

لقد كان سيداً شهماً ، كريم النفس ، سخي اليد ، أسرف على نفسه في الجود ، حتى كان لايبالي أن يهلك ماله أو أن يصل الى أعدائه .

• • •

وأثمر الزواج المبارك ثمرته ، فولدت له زينب أربعة بنين : علياً ، ومحمداً ، وعوناً ، والعباس ، كما ولدت له بنتين ، ولقد كان أولادها الأربعة معها عندما سارت في ركب أخيها الحسين الى كربلاء ، وقد أخذ الضعف والعجز من أبيهم مأخذه فبقي في المدينة ... وهكذا استشهدوا بين يدي خالهم العظيم على أرض الطف .

إن من يتصفح حياة عقيلة بني هاشم (زينب) لايستكثر علينا القول بأن النهضة التي نهضها الحسين عليه السلام بوجه الكفر والارتداد عن دين الله كانت بتراء لو لم تبدأ (زينب) مهمتها من بعد معركة الطف ، آخذة بزمام الأمر في كل المراحل ،

وعلى عاتقها فقط ، كُتب الخلود لنهضة الحسين ، فكانت حلقة الوصل بين (الطف) و (الأجيال اللاحقة) .

ولعل السر في ذلك أن (يزيد) كان قد عمّى على أغلب الناس بأن الجيش الذي بعثه إنما هو لمحاربة بعض الخوارج في العراق ، وأن الرؤوس

---

(١) بنت الشاطىء : بطلة كربلاء ص ٣٢ ، دار الاندلس ، بيروت .

التي حُملت اليه إنما هي رؤوس الخارجين عن ربقة الطاعة ، والشاقين عصا المسلمين :

ولكن (زينب) أوضحت للجمهور في (الكوفة) و (الشام) وفي الطريق . . . أنها والنساء التي معها بنات رسول الله (ص) ، وألصقت الخزي والعار بيزيد ومناصريه في ارتكابه الجريمة الشنعاء :

لقد خطبت في الكوفة خطبة بليغة ، وخطبت في الشام في (مجلس يزيد) خطبة أخرى عظيمة كان لها أبلغ الأثر في إيقاظ الجماهير ولوجيه أنظارهم الى الحقيقة التي حاول يزيد عبثاً إخفاءها وإسدال الستار عليها .

وكانت هي المسؤولة الوحيـــدة عن عيال الحسين والأنصار ، حتى أوصلتهم الى المدينة المنورة : : :

استقبلت مدينة الرسول هذا الركب الحزين ، وليس معه رجل إلا (علي بن الحسين السجاد) الذي كتب له البقاء لتستمر الامامة بوجوده وتلتقل في صلبه :

لقد ودعت المدينة هـــذا الركب بقيادة الحسين عليه السلام ومعه بنو هاشم : : : وهاهم يرجعون وقد تركوا الشهداء جثثاً بلا رؤوس على أرض الطف يخطون أروع سطور الشرف والإباء والتضحية في سبيل الدين الحنيف :

* * *

(٤) أم كلثوم :

ولدت الزهراء عليها السلام بعد (زينب) بنتاً أخرى سمّاها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله (أم كلثوم) ، ولا يذكر المؤرخون غير نتفٍ

يسيرة من حياتها :

تزوجها (عمر بن الخطاب) فولدت له ولداً سماه زيداً :

وقد ماتت هي وولدها في يوم واحد لسبب يختلف فيه الرواة ، والظاهر أن الجدار سقط عليها :

وعلى هذا المقدار تقتصر الصورة التي يعطيها المؤرخون عن (أم كلثوم) بنت الزهراء عليها السلام :

• • •

(٥) المحسن :

قلنا : ان البرعم الخامس من براعم الزهراء لم يقدّر له أن يعيش فقد أسقط في الأحداث التي جرت على الزهراء عليها السلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله عندما دخلوا بيتها عنوة وأضرموا النار على باب الدار ، وقد لاذت خلف الباب لتحفظ نفسها عن النظر اليها ، فكانت عصرة من أحدهم ، أسقط الجنين على أثرها :

وكان الجنين قد سمّي (محسناً) قبل أن يولد :

• • •

هذه صورة مصغرة عن ثمار دوحة الرسالة : مثّلت أولاد رسول الله صلى الله عليه وآله من صلب علي وفاطمة ، الذين ظلّوا الأنوار الساطعة التي تحكي نوره عبر الأجيال ! ! !

التربية الفاطمية

ولو سميناها (التربية المحمدية) لما عدونا الواقع : : :

الحق أن مسألة التربية من أخطر المسائل الانسانية ، لأن مصيرها يتوقف على هذه المسألة الحية ، لأن الوراثة ليست العامل الحاسم في سلوك الانسان إلا في موارد قليلة . . . : ذلك أن التربية تستطيع بما لها من قوة أن توجه القابليات والمواهب الموروثة نحو الطريق الذي تريد من خير أو شر ، وهدى أو ضلال .

ان الفرد لا يستغني عن التربيـــة في أي مرحلة من مراحل حياته ، فالطفل يحتاج الى تربية تضع رجله على طريق الخير والصلاح :

والشاب يحتاج الى تربية توجّه طاقاته وإمكاناته نحو الانتاج الفعّال - فنياً او علمياً - وترشده الى الموازنة بين عواطفه وميوله وأهوائه حسب مقاييس صحيحة :

والشيخ يحتاج الى تربية تجعل منه إنساناً يستفيد من تجاربه ويكوّن منها (إيديولوجية) يتبناها ويدافع عنها ، ويدفع الآخرين لالتزامها :

وتزداد التربية أهمية بالنسبة الى الأفراد الذين يملكون قابليات وراثية عظيمة ، فان تآزر هذين العاملين وتعاونهما في مجال واحد يجعل من الفرد عبقرياً : : : شأنه في ذلك شأن البـــذرة الصالحة ، فانها إذا لاقت تربة جيدة وسُقيت بانتظام أخرجت نبتة سرعان ما تنمو وتصبح شجرة باسقة تظلّل بأغصانها ، وتمد الناس بثمارها .

• • •

وبلغ من اهتمام الزهراء سلام الله عليها بتربية أولادها - بمعونة زوجها الامام - أن بذلت كل وسعها لترسيخ الأسس الوراثية التي اكتسبوها من الأصلاب الشامخة التي انحدروا عنها ، ودعمها بما يضمن نبوغهم وعبقريتهم فنجحت في ذلك نجاحاً تاماً .

ويتضح ذلك جلياً من خلال الفقرات التالية : -

(١) احترام شخصية الطفل :

كانت الزهراء سلام الله عليها تعنى كثيراً باحترام شخصية أطفالها ، وتعاملهم معاملة الرجال في التخاطب معهم .

ان هذه المعاملة تقوي معنوية الطفل ، وتفهمه أنه أيضاً يتمتع بمكانة ممتازة في الاسرة والمجتمع ، ولذلك فانه ينشأ على الطموح والاستقلال والثبات بعكس الأمهات اللائي يحتقرن أطفالهن ، فانهن يقتلن بعملهن هذا جذور الشخصية والاستقلال ، ويكبتن فيهم دوافع النمو العقلي المطرد .

وكان لهذا الاحترام أثره الفعال في أبناء الرسول (ص) ، مما جعلهم يشعرون بمنزلتهم ويطلعون على أبعاد شخصيتهم .

يقول أبو رافع - مولى النبي - :

« كنت ألاعب الحسن بن علي عليهما السلام - وهو صبي - بالمداحي . فاذا أصابت مدحاتي مدحاتـه قلت : احملني : فيقول : ويحك ! أتركب ظهراً حمـله رسول الله (ص) ؟ فاتركه . فاذا أصابت مدحاته مدحاتي قلت : لا أحملك كما لا تحملني . فيقول : أوما ترضى أن تحمل بدناً حمله رسول الله (ص) ؟ فاحمله » (١) .

---

(١) الميرزا حسين النوري : مستدرك الوسائل ج ٢ / ٧١٧ .

هـــذه التربية القيّمة هي التي جعلت الامام الحسين عليه السلام يأبى الخضوع لمعسكر الفسق والفجور والظلم ، المتمثل في يزيد بن معاوية وأتباعه وينهض مع النفر القليل لمحاربة الكفر والإلحاد والانحراف .

ولقد صرح بذلك حين قال : « ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين : الذلة أو السلة ، وهيهات منا الذلة ، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون ، وانوف طابت ، وحجور طهرت » .

(٢) التربية على أساس الايمان :

تكون التربية التي لا تستند الى أساس الايمان بالله فـاقدة للجدوى ، لأنها تقود الطفل الى الانكار والجحود ، وهذا ما يُسدل أمام عينيه ستاراً مظلماً حالكاً تصعب إزالته فيما بعد .

أما الزهراء فان بيتها المتواضع كان مناراً للايمان ومشكاة للهداية .. رضعت أولادهـا من لبان ذلك الايمـــان الخالص ، وغذّتهم بتلك القيم الروحية العالية ، فأصبحوا — والحق — جديرين بأن يكونوا الامتداد الخلاق لرسالة جدهم العظيم .

وشتان بين تربية أساسها الايمان ، درج عليها الحسن عليه السلام ، وتربية أساسها النفاق والجشع نشأ عليها معاوية !

وبون شاسع بين تربية أساسها الطهارة تلقاها الحسين عليه السلام ، وتربية أساسها الدنس والرجس تطبّع عليها يزيد .

(٣) الاستقامة :

وكما نشأت الزهراء عليها السلام على الاستقامة في السلوك ، فانهـا حرصت على تنشئة أولادها على الاستقامة أيضاً .

لقد عودتهم على الصراحة والصدق والوفاء بالوعد ، والعكس ذلك على سلوكهم في المجتمع عندما شبّوا وأصبحوا أعضاء بارزين يُشار اليهم بالبنان ... خصوصاً بعدما احتل الحسنان منصب الامامة والقيادة .

وبالرغم من أن الفضل في شطر من ذلك يرجع الى دقة الاسلوب الذي تبناه الامام عليه السلام ، فان الزهراء كانت تشارك عملياً في تطبيق ذلك الاسلوب ، كما أنها كانت تمثل بحد ذاتها الأم الحريصـة على سلامة تربية أولادها .

وجدير بكل أمٍّ أن تقتـدي بالزهراء عليها السلام ، تستلهم منها الاستقامة والصراحة والصدق ، فتحول ذلك الى قدوةٍ يقتدي بها الأطفال ويلتزمونها ، حتى إذا ما ترعوعوا وتقـدموا في السن كانوا أعضاء نافعين وواعين في المجتمع .

والآن تحضرني صورة بريئة جداً للطفلة التي تعوّدت الاستقامة من أمها في حوار مع أبيها ...

تلك هي زينب ابنة الزهراء . أجلسها الامام أمير المؤمنين عليه السلام مع أخيها العباس يوماً ، وقال للعباس :

– قل : واحد !

فقال : واحد .

فقال : قل : اثنان !

قال : استحي أن أقول باللسان الذي قلت ، واحد : اثنان !

فقبّل علي عليه السلام عينيه ، ثم التفت الى زينب ، فقالت :

– يا أبتاه ، أتحبّنا ؟

قال : نعم يا بنيّتي ، أولادنا أكبادنا !

فقالت : يا أبتاه ، حبان لا يجتمعان في قلب المؤمن : حب الله ، وحب الأولاد . وإن كان لابد فالشفقة لنا والحب لله خالصاً » (١) .

انه حوار قصير جداً ، ولكنه يكشف عن وعي كبير في الطفلة البريئة : انها تريد أن تقول لأبيها : لقد تلقيت منك ومن أمي درساً هو أن الحب لا يكون إلا لله تعالى ، وأن المؤمن لا يعمر قلبه إلا بحب ربه ، ولذلك فان الحب يكون لله ، وللأولاد الشفقة :

(٤) الاعتماد على النفس :

الاعتماد على النفس من الشروط الأساسية للتكامل الفردي والاجتماعي : على كل فرد أن يستند الى علمه واخلاقه ، وجدّه وجهده ، ويسعى في طريق ضمان سعادته نظرياً وتطبيقياً ، وأن يكون على حذر تام من الاعتماد على الآخرين :

إن المرء مرهون بعمله ، وهو الذي يتحمل تبعة ما صدر منه من خير أو شر ، وان الجزاء الذي يناله أو يصيبه إنما هو النتيجة الطبيعية لما اكتسبت يداه : ومن هنا أكد الاسلام في أكثر من مجال على مسؤولية الفرد عن أعماله ، وتوقف نجاحه على ما يبذل من جهود لتحقيق هدفه : قال تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة » (٢) .

---

(١) الميرزا حسين النوري : مستدرك الوسائل ، ج ٢ / ٦٣٥ :

(٢) سورة المدثر / ٣٨ :

وقال أيضاً : « وأنْ ليس للانسان إلا ما سعى ، وأنّ سعيه سوف يُرى » (١) :

وقال الامام أمير المؤمنين عليه السلام : « الشرف بالهمم العالية ، لا بالرمم البالية » (٢) :

وقال عليه السلام : « قدر الرجل على قدر همته » (٣) .

ويقول الامام السجاد عليه السلام : « رأيت الخير كلّه قد اجتمع في قطع الطمع عما في أيدي الناس » :

وعلى الوالدين بالدرجة الأولى أن يلقنا الطفل درس الاعتماد على النفس منذ الصغر ، حتى ينشأ مستنداً الى عمله لا مفتخراً بأمجاد آبائه .

وهذا ما نلمسه بوضوح في سلوك الحسنين عليهما السلام ، فقد حازا تلك المنزلة العظيمة بالاعتماد على نفسيهما دون التفاخر بالأب والجد . والفضل في ذلك يعود الى التربية السليمة التي تلقياها من أبيهما العظيم ، وأمهما الصديقة الطاهرة .

• • •

وهكذا يبقى أولاد الزهراء عليها السلام نماذج فذة تحكي عظمة التربية الفاطمية ، واستنادها الى أقوم الأسس والأساليب ، وأدق التعاليم الاسلامية التي تلقتها الزهراء في بيت الوحي والرسالة :

---

(١) سورة النجم / ٣٩ .

(٢) الآمدي : غرر الحكم ودرر الكلم ص ٨٧ :

(٣) محمد عبده : شرح نهج البلاغة ج ٣ :

بشائر

١ ـ ويطعمون الطعام ...
٢ ـ أجر الرسالة
٣ ـ المباهلة
٤ ـ آية التطهير
٥ ـ بلاغتها
٦ ـ عصمتها

ويطعمون الطعام ...

كثيرون هم الكرماء :::

وكثيرون اولئك الذين ينفقون في سبيل مرضاة الله :::

وكثيرون هم الذين يطعمون الطعام للفقراء والمساكين :::

ولكن ليس في ذلك كبير فضل ، ماداموا يملكون فضلا في المال ، وزيادة في الطعام ::: إنما الكرم كل الكرم ، يظهر في صورة حاجة الفرد إلى الطعام وإيثار غيره على نفسه ، واحتياجه الى المال وتقديم المعسر على شخصه :

هذه الصورة نجـدها في بيت الزهراء ::: ناصعة السمات ، واضحة الملامح .

* * *

تمرض الحسنان ذات يوم ، وجاء النبي صلى عليه وآله لعيادتهما ، فتأثر كثيراً مما رآهما فيه من الضعف والمرض وقال لعلي عليه السلام : لو نذرت لشفاء ولديك نذراً !

فنذر الامام عليه السلام لله أن يصوم ثلاثة أيام إن شفي ولداه : وشاركت الزهراء عليها السلام في النذر ، كما تبعتهم (فضة) :

برىء الحسنان من مرضهما ، وحان موعد وفاء النذر : : :

لم تكن في زوايا البيت المتواضع مخازن للطعام ، كما هو الشأن في بيوت الطبقة الارستقراطية ، فانطلق الامام عليه السلام الى جار له يعالج الصوف ، واتفق معه على أن تغزل له الزهراء جزة من صوف لقاء ثلاثة أصوع من الشعير :

وأخذ الصوف ومعه الشعير فأتى بهما الى البيت ، وأخبر أم الحسن بذلك فقبلت وغزلت ثلث الصوف ، ثم أخذت صاعاً من الشعير فطحنته وخبزت منه خمسة أقراص لكل واحد قرصاً ، وأعدت ذلك للافطار :

وعند الإفطار .:: انتظرت الزهراء علياً ريثما يرجع من المسجد ، وما أن قدم حتى وضعت الخوان وفيه الأرغفة وجلست هي والحسنان ، ومعهم فضة !

وفجأة طرق الباب طارق :

انه مسكين يقول : السلام عليكم ياأهل بيت محمد ، أنا مسكين من مساكين المسلمين ، أطعموني مما تأكلون ، أطعمكم الله على موائد الجنة .

ولم يكن من الزهراء الا أن تقدم له كل مافي الخوان .

باتوا جياعاً ، واصبحوا اليوم الثاني صياماً ولم يذوقوا إلا الماء !

• • •

وفي اليوم الثاني غزلت الزهراء الثلث الثاني من الصوف ، وأخذت صاعاً من الشعير فطحنته وخبزت منه خمسة أقراص ، واعدت ذلك للافطار

وهكذا تنتظر الزهراء عليها السلام زوجها الامام كي يعود من المسجد وتضع الخوان وتجلس الاسرة الطاهرة لتناول طعام الافطار ، بعد أن أخذ الجوع منهم مأخذه .:: ولكن طارقاً كالذي حضر بالامس يستوقفهم ليقول :

السلام عليكم يا أهل بيت محمد ، أنا يتيم من يتامى المسلمين أطعموني مما تأكلون ، أطعمكم الله على موائد الجنة :

لم يتعود علي ولا الزهراء أن يردا أحداً ، أو يتغافلا عن إغاثة أحد وإن كان بهما خصاصة ، فكيف يردان هذا اليتيم ؟

رفع الخوان الي الطارق كاليوم السابق :

وبات الجميع جياعاً لم يذوقوا إلا الماء !

في اليوم الثالث عمدت الزهراء عليها السلام إلى ما تبقى من الصوف فغزلته ، واخذت الصاع الأخير من الشعير ، فطحنته وخبزت منه خمسة أقراص ، وأعدتها للافطار :

لكم الله يا أهل البيت !

تذوقون الجوع ثلاثاً ، وتتجرعون ألم الطوى ، رغبة في ذات الله ، وإنفاقاً في سبيله !

ويرجع علي عليه السلام من المسجد ، فيجلس الجميع لتناول الإفطار.

وإذا بطارق يطرق الباب ...

وتصغي له الزهراء عليها السلام ، وإذا به يقول :

السلام عليكم يا أهل بيت محمد ، تأسروننا وتشدوننا ولا تطعموننا ؟!

إنه أسير من أسرى المشركين ، ولكنه إنسان قبل كل شيء ، يشكو الجوع ...

وما كان من علي عليه السلام إلا أن يأمر الزهراء برفع الخوان اليه ويبيتون جياعاً ، ثم يصبحون مفطرين وليس عندهم شيء

* * *

ويشاء الله أن يظهر فضل أهل البيت !

وتشاء حكمته أن يسجل لهم هذه المزية في قرآن يتلى على الناس على مر الأجيال والقرون ... فيتذكرون كرماً مابعده كرم ، وترنو أبصارهم الى إيثار لايضاهيه إيثار ، وإطعام على حب الله لايدانيه إطعام .

فيهبط الروح الأمين ويقرأ على النبي (ص) :

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ..» إلى أن يصل الى قوله تعالى :

« إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً :

« عيناً يشرب بها عباد الله ، يفجرونها تفجيراً » :

« يوفون بالنذر ، ويخافون يوماً كان شره مستطيراً » .

« ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ، ويتيما وأسيراً » .

« إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكوراً » (١)

ويلقى محمد (ص) هذا الوحي بكل إجلال وإكبار :

ولتخلد للزهراء وعلي والحسنين هـذه المزية ، وهـذا الايثار ، مادام على البسيطة مسلم يتلو القرآن !

---

(١) سورة الدهر : ٥ ـ ٩ :

أجر الرسالة

من قال : إن طريق الاصلاح معبّد بالازهار والرياحين ؟ ! !

ومن يتصور : أن عملا جباراً كالذي قام به النبي (ص) يتم دون تضحيات ؟ ! !

ومن زعم : أن تحولا عظيماً في حياة الجزيرة العربية كالذي حصل على يد منقذ البشرية ، ورسول الانسانية محمد صلى الله عليه وآله يتحقق دون عقبات وحواجز ؟ ! !

لقد تحمل النبي (ص) كل تلك التضحيات برحابة صدر ، واجتاز العقبات والحواجز واحدة بعد الأخرى ، ومهد لانتشار الدعوة الاسلامية بما أوتي من ثبات واستقامة :

حاربته قريش ، وقاطعه بعض أقاربه ، وقوبل بالسخرية والاستهزاء وضيّق الخناق على اصحابه ، فلقوا من التعذيب والاضطهاد ما زاد ثباتاً على ثباتهم ، وصلابة في عقيدتهم :

وإزاء هذا الموقف السلبي !

وإزاء هذا الاضطهاد وذلك التعذيب !

وإزاء كل هذا العَنَت : : :

كان محمد (ص) يقف بين يدي ربه وقفة ملؤها الخضوع والخشوع ويقول : اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون !

انه الجهل ، والناس أعداء ما جهلوا . : :

• • •

ولو علم العرب ما في الطريق الذى يقودهم اليه محمد (ص) من خير وسؤدد : :

ولو عرفوا أن في اتباع الدين الذي يبشّر به رسول الله (ص) ، سعادة الدنيا ونعيم الآخرة . :

لو عرفوا ذلك ، لما عارضوه ، ولأقبلوا عليه يؤازرونه وينضوون تحت لوائه .

لكنه الجهل ، والناس أعداء ما جهلوا : : :

* * *

وإذ نجحت الدعوة وتمّ الأمر لمحمد صلى الله عليه وآله في الغلبة على المشركين ، وتحطيم الأصنام ، وصرف العرب عن عبادتها والركون اليها وتحقيق السيادة لهم على وجه الأرض : . : فبماذا يا ترى يجازونه وما هو أجره على الرسالة ؟ !

أهو المال ؟ وقد كان بامكانه - لو شاء - أن يملك خزائن الأرض !

أهو السيادة ؟ وقد فضّله الله على العالمين !

أهو شيء مما يفكر فيه بنو البشر من اعتبارات مادية ؟

كلا !

فالرسول العظيم أجلّ من ذلك : إنه يطلب أمراً هو في مقياس المقدرات أسهل ما يكون ، ولكنه في مقياس النفسيات أصعب ما يكون :

ما هو يا ترى ؟ !

إنه (المودّة في القربى) :

أن يحفظوه في اهله ، ويراعوه في قرباه : وهل أهله غير الزهراء وبعلها وبنيها ؟ ! وهل قرباه غير هؤلاء الأربعة والذرية الطاهرة المنحدرة عنهم ؟ !

ولكي يثبت ذلك في الأذهان ، ولأجل ان يكون النص في ذلك صريحاً لا مجال فيه لتأويل أو تحريف ، أمر الله تعالى نبيه في القرآن بأن يظهر ذلك للملأ .

ليعلن على المسلمين قوله عز من قائل :

« قل : لا أسألكم عليه أجراً ، إلا المودة في القربى » (١) :

ولتطمئن نفس محمد (ص) بعد ذلك بأنه قد أوتي أجراً على رسالته لا يُضاهى بأي أجر !

ولتكن هذه الآية نقطة إدانة في إضبارة (الزهراء) ضدّ من خاصمها وغصب حقها ، عندما تعرض الأضابير يوم القيامة أمام محكمة العدل الإلهي : : :

وهنالك يخسر المبطلون !

---

(١) سورة الشورى / ٢٢ :

المباهلة

الجزيرة العربية كانت وثنية قبل مجيء الاسلام ، ولكن هذا لا يعني إنعدام الأديان القديمة فيها : فقد كان هناك يهود في المدينة وخيبر وفدك ونصارى في الطائف ونجران ومواضع أخر :

كان نجاح منطق النبي (ص) في دحر الوثنية طبيعياً ، كما كان تغلبه بالقوة على اليهود الذين أبوا إلا أن يعيثوا في الأرض فساداً ، كافياً في القضاء عليهم : : :

أما النصارى فانهم كانوا يعتبرون أنفسهم حملة الرسالة السماوية ، وأتباع المسيح عليه السلام ، وما على محمد (ص) إلا أن يثبت لهم أن شريعته جاءت ناسخة للشريعة المسيحية ، وأنه خاتم الأنبياء جميعاً .

ولا يحصل مثل هذا في الغالب إلا بعد نقاش طويل وجدل عريض تتدخل فيه بعض النوازع والحزازات ، وتمنع من الانصياع للحق أحياناً :

لذلك فقد قدم وفد من نصارى (نجران) على النبي صلى الله عليه وآله يتباحثون معه في شؤون المسيحية والاسلام : وعلى أن النبي استطاع ببيانه المعجز ، وبالبشارات التي جاءت عنه في الانجيل أن يقنعهم بصورة مبدئية بصدق نبوته . : : إلا أنهم ظلّوا يشككون ، ولا تطمئن نفوسهم الى الواقع :

راح النبي (ص) يطلب منهم المباهلة ، والمباهلة عبارة عن الملاعنة يقصد الطرفان منها إثبات الأحقية ، فيسألون الله تعالى إنزال العذاب على الكاذب منهم :

وجاء هذا الأمر بصورة وحي نزل به الروح الأمين :

« فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » (١) :

* * *

لقد كان الحافز لهذه المباهلة - كما قلنا - الحرص - على توطيد دعامة الحق : وواضح أن مقياس الاختيار في الاشخاص الذين سيباهل بهم النبي إنما هو مقدار تمتعهم بالفضيلة والتقوى ، ورسول الله لا يتجه في ذلك إلا حيث يوجهه الله تعالى :

وقد وافق وفد نصارى نجران على هذا الاقتراح ، وأعدّوا للأمر عدّته ، وكان الموعد : يوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة :

* * *

استيقظت المدينة المنورة على يوم شهدوا عليه كل سمات التغير والتحول فقد أصبحت البلدة الطيبة غيرها بالأمس ، ولم يبق من لا يتحدث ثم هو لا يستفيض في الحديث عن المباهلة :

ومُدّت الأعناق لترى السلطة الرهيبة ، وصمت الآذان للرعدة القاصفة :

إنها لقريبة جداً ساعة المباهلة ، أو ساعة الانذار بلعنة الله على الكاذبين (٢) :

انه يوم يحمل بين تلافيفه المفاجأة الكبرى ، والدعوة سافرة لايستترها

---

(١) سورة آل عمران / ٦١ .

(٢) لقد اوفى العلامة الشيخ عبدالله السبيتي في الحديث عن المباهلة في كتابه القيم : (المباهلة) . وفي هذا الفصل فقرات مقتبسة من ذلك الكتاب :

شيء ، وهي من مقولة الأرقام وليست من مقولة الجدل والبرهان :

يوم يحمل بين طرفيه الحادث الخطير ، يجر في اعقابه الف حادث وحادث ...

يحمل بين طياته عدالة السماء ، وغضب جبار السماوات ليعطي كلا من المتباهلين نصيبه منها . ويكاد الناس أن يؤمنوا أنها النهاية بعد أن ترتفع الأكف للابتهال ، وتجأر الألسن بالدعاء :

يوم مشهود ::: قف منه حيث شئت فانما تقف على عظمة الرسالة المحمدية تتجلى في نفس واحدة من الانفس الكثيرة ، وامرأة واحدة من نساء كثيرات ، وطفلين ، طفلين لاغير ::: هم جميعاً صفوة الصفوة ، ولبّ اللباب ، الذين اختارهم الله لكرامته ، وأعدّهم لهداية أمته من بعد نبيه :

يوم مشهود : . : اختصم فيه خصمان بربهم :

• • •

لقد جاءت الساعة المرتقبة ، واللحظة المنتظرة ::: . لحظة فقط تنفجر فيها براكين الأرض ، وترسل السماء شهب النار : . لحظة واحدة يهلك فيها الكبير ويفنى الصغير ، حيث زلزلت الأرض زلزالها :

انطلقت الأبصار الى الجهة التي فيها رسول الله صلى الله عليه وآله ترقب الثغر الباسم والجبين المشرق والوجه الأغر :

يا لجلال الله ، هو ذا رسول الله يخرج ووجهه يشعّ بالنور :

يا لعظمة الحق وجلال الايمان : : : هو ذا يحتضن (الحسين) ويمسك بيمناه (الحسن) وخلفه بضعته (الزهراء) مغشّاة بملاءة من النور ، وهذا (علي) يمشي خلفها باهر الجلال ، يرتدي بردة من مهابة الله .

والمباهلة هي القول الفصل في نهاية الجدل وقد اختارها الله لنبيه واختار له الأشخاص الذين يؤمنون على دعائه :

وبعد ، فالعقل لا يصل الى صورة أرفع من هذه الصورة : وإلى أشخاص في رتبة هؤلاء أو أرفع ، لئلا يقع من العليم الحكيم الترجيح بدون مرجح في المرحلة الحاسمة ، ولأن العقل لا يساند الاختيار إلا إذا وقع على الأمثل من المُثل العليا ، وليس في مكنون علم الله سبحانه أمثل من هؤلاء .

* • *

وتقول الروايات : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بشجرتين فقصدتا وكُسح مابينهما ، حتى إذا كان الغد أمر بكساء أسود رقيق فنشر على الشجرتين على هيئة المخيم :

وخرج زعماء النصارى بأبهى الحلي والحلل : . : ثم أرسل النبي إلى زعيمين منهم ، هما (السيد) و (العاقب) يدعوهما إلى المباهلة :

جفل الوفد والكمش على نفسه ، عندما رأى تلك الأنوار المشرقة وقال بعضهم لبعض :

— لم يأتنا أبو القاسم بأهل الكبر والشدة من أتباعه ، وإنما جاء بالأعزة والأحبة من أهل التخشع ، وبهلة الأنبياء ، والصفوة الصفوة المختارة :

وهنا كاد اليقين يمس قلوبهم بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله فتقدم السيد والعاقب إلى رسول الله (ص) :

— يا أبا القاسم بمن تباهلنا ؟

— أباهلكم بخير أهل الأرض وأكرمهم على الله ، هؤلاء ::: [وأشار إلى علي وفاطمة والحسن والحسين] :

— فما لراك جئت لتباهلنا بالكبر ولا الكثر ، ولا أهل الشارة ممن

نرى ممن آمن بك واتبعك ، وما نرى هنا معك إلا هذا الشاب والمرأة والصبيين ، أبهؤلاء جئت وجئتنا لباهلك ؟

– أجل : بهؤلاء ، وهم خير أهل الأرض وأفضل الخلق :

ورجعوا الى أسقفهم فقالوا :

– أبا حارثة ماذا ترى ؟

– ماذا أرى ؟ إني لأرى وجوهاً لو سئل الله بها أن يزيل جبلا من مكانه لأزال :.: أفلا ترون محمداً رافعاً يديه ينظر الى ماتجيئان به ؟ وحق المسيح ان نطق فوه بكلمة فلا نرجع إلى أهل ولا إلى مال :

كان كل شيء قد تغير ، فالشمس تغير لونها ، وتجمعت في الأفق سحب داكنة ، وهبت رياح سوداء حمراء ، وأخذ الدخان يتصاعد من الجبال : فوعى القس الحقيقة واستطرد قائلا :

– لقد أطل العذاب : انظروا الى الطير وهي تقيء حواصلها ، والى الشجر كيف تساقط اوراقها ، والى هذه الأرض كيف ترجف تحت أقدامنا ؟!

والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمداً نبيٌ مرسل ولقد جاءكم بالأمر الفصل من أمر صاحبكم ، والله ماباهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لتهلكن وكان الاستئصال :.: وإنما عهدكم باخوانكم حديث ، وقد مسخوا قردة وخنازير .

ويحكم لاتباهلوه :

لاتباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى الى يوم القيامة !

* * *

وإذ امتنع وفد نصارى نجران عن المباهلة ، عرض النبي صلى الله عليه وآله الاسلام عليهم ، فأبوا ذلك ، وآثروا البقاء على دين آبائهم .

عند ذاك صالحهم النبي على الجزية ، وكتب لهم بذلك كتاباً :::

ويذكر أن رسول الله (ص) قال لأصحابه بعد ذلك :

« والذي نفسي بيده ، ان الهلاك تدلى على أهل نجران ، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهله ، حتى الطير على رؤوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا » :

• • •

هذه صورة بلا رتوش !

صورة عن حدث تاريخي وقع في الفترة التي شهد فيها الاسلام استقراراً وتركزاً في المدينة المنورة ، ولكنها تحكي لنا عن مسألة دقيقة حاول أكثر المؤرخين إخفاءها أو إهمالها بالمرور عليها مرّ الكرام . : .

تلك هي الاشادة بعظمة علي والزهراء والحسن والحسين عليهم السلام وبيان منزلتهم عند الله تعالى . واولا ذلك لما صح للنبي صلى الله عليه وآله أن يباهل النصارى بهم ، ويتفوق عليهم ذلك التفوق المنقطع النظير :

وعلى المطالع المنصف في زوايا التاريخ الاسلامى أن يكتشف بعد ذلك دواعي هذا الاخفاء وأسبابه البعيدة !

آية التطهير

وليس من المفاجأة في شيء أن نسمع بأن الله أنزل في علي والزهراء والحسنين آية أخرى دلت على عصمتهم من الذنوب، وتنزههم عن المعاصي واحتلالهم القمة في سلّم الكمال الانساني :

تلك الآية هي آية التطهير، وهي قوله تعالى

« إنمـا يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهـل البيت، ويطهّركم تطهيراً » (١) :

وكان النبي حين نزول هذه الآية الشريفة في بيت أم سلمة، فعندما نزلت دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين وغطّاهم بكساءٍ يماني، وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي .

وأرادت (أم سلمة) أن تدخل معهم تحت الكساء، فجذبه النبي صلى الله عليه وآله، قائلا : إنك على خير :

• • •

لم يكتف رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك، بل بلغ في توضيح اختصاص الآية بهؤلاء الخمسة - وهو منهم - كل مبلغ، وسلك في إعلان ذلك مسالك ينقطع معها شغب المشاغب :

كان يمر ببيت فاطمة كلّما خرج الى صلاة الفجر، ويقول :

« الصلاة يا أهل البيت، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهـل البيت ويطهركم تطهيراً » :

---

(١) سورة الأحزاب / ٣٣ :

وقد استمر على ذلك ستة أشهر (١) ؛

وقال بعضهم : سبعة أشهر (٢) .

وقال آخرون : ثمانية أشهر (٣) ؛

وعلى أية حال ، فليس الاختلاف في ذلك بالذي يضّر بأصل الموضوع ومن هنا ندرك مدى اهتمام الرسول الأعظم ببيان عصمة أهل بيته للملأ ، والاعلان بذلك حتى لا يجحد فضلهم بعد جاحد ، ولا يعارضهم معارض ؛ وعمله هذا أوضح دليل على نزول الآية في حق هؤلاء فقط ؛

• • •

لكن النفوس المريضة التي تكنّ الحقد والبغضاء لعلي عليه السلام ، لا يروق لها نور الشمس وتألّقه ، لأنها تألف الظلام وتفرّ من النور ، ولذلك فهي تحاول - عبثاً - أن تصرف ظهور الآية عن اختصاصها بأهل البيت ، بدعوى أن المراد منها نساء النبي ، نظراً لسياق الآية ، ووقوعها بعد الآيات التي تعرضت لأحكام نساء النبي (ص) ؛

ولنناقش هذا التضليل من جانبين : السند ، والنص .

(١) السند :

من أشدّ الدعاة إلى اختصاص الآية بنساء النبي تعصباً رجلان :

أ - عكرمه ؛

ب - مقاتل بن سليمان ؛

---

(١) أحمد بن حنبل : المسند ، ج ٣ / ٢٥٩ ؛

(٢) عبد الحسين شرف الدين : الكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراء ص ٢٠٨

(٣) يوسف بن اسماعيل النبهاني : الشرف المؤبد ص ٨ .

(أ) أما الأول فيكفي أن نسمع فيه (١) : -

١ - أنه كان من أصحاب نجدة الحروري (وهو من أشد الناس عداوة لعلي ابن أبي طالب) :

٢ - أنه من غلاة الخوارج :

٣ - أنه كذاب

٤ - أنه غير ثقة :

٥ - أنه يميل الى استماع الغناء .

٦ - لا يحتج بحديثه :

(ب) وأما الثاني ، فقد ورد في ترجمته (٢) : -

١ - أنه كان كذاباً جسوراً :

٢ - كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن الذي يوافق كتبهم :

٣ - كان مشبهاً ، يشبه الرب بالمخلوقين .

٤ - كان يقول : سلوني عما دون العرش ، فسأله أحدهم عن النملة أين أمعاؤها فسكت .

٥ - كان من رجال المرجئة :

---

(١) راجع ترجمته في : (ميزان الاعتدال) للذهبي :
و (مقدمة فتح الباري) للعسقلاني ،
و (وفيات الأعيان) لابن خلكان .
و (معجم الأدباء) لياقوت الحموي :

(٣) راجع عنه : (الملل والنحل) للشهرستاني :
و (الثقات) لابن حبان البستي .
و (ميزان الاعتدال) للذهبي :

وإذ عرفنا حالها ضعف اعتبار حديثها ، وما أراداه من صرف ظاهر الآية الى نزولها فى نساء النبي (ص) .

(٢) النص

هناك نصوص ثابتة لا مجال فيها لشك أو ترديد ، تصرح بأن آية التطهير نزلت في أصحاب الكساء لا غير .

فمن ذلك ما يلي : -

١ - عشرون رواية ذكرها السيوطي في تفسيره (الدر المنثور) من طرق مختلفة .

٢ - خمس عشرة رواية ذكرها ابن جرير في تفسيره (المعروف بتفسير الطبري) بأسانيد مختلفة .

٣ - رواية ذكرها أحمد بن حنبل في (مسنده) .

٤ - وذكر ذلك ابن حجر في (الصواعق المحرقة) .

٥ - والطبراني في (المعجم الكبير) .

٦ - والواحدي في (أسباب النزول) .

٧ - والثعلبي في (تفسيره الكبير) .

يتبين لنا من استعراض النصوص في هذه المصادر اختصاص الآية بأهل الكساء - وهم الخمسة - وبطلان ما يرجف المرجفون حولها :

على أن دعوى نزول الآية في حق نساء النبي (ص) مردودة بالأدلة التالية : -

أولا : إنها اجتهاد في مقابل النصوص الصريحة والأحاديث المتواترة الصحيحة .

ثانياً : أنها لو كانت خاصة في النساء ، لكان الخطاب في الآية بضمير الجمع المؤنث ، فتذكير الخطاب في هذه الآية مع تأنيثه في الآيات السابقة عليها أقوى حجة على عدم نزولها فيهن .

ثالثاً : ان وقوع آية التطهير بين الآيات التي تتعرض لأحكام نساء النبي (ص) استطراد يحسن وقوعه في الكلام البليغ .

رابعاً : ان القرآن لم يترتب عند جمعه حسب ترتيب النزول . وذلك باجماع من المسلمين . فالتمسك بوحدة السياق لا يكفي دليلا على الدعوى لاحتمال وقوع التغيير في الترتيب .

* * *

ولا يبقى لنا - وقد انتهينا من اثبات سند ما ذهبنا اليه ودلالته - إلا أن نقف وقفة الإكبار والاجلال لأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . . .

وهم - بعدُ - نتاج نورين خُلقا قبل أن تُخلق السماوات والأرض هما نور محمد وعلي .

بلاغتها

لا يستعظم على الزهراء عليها السلام بلاغتها ، بعد أن اتفق المؤرخون على أنها كانت أشبه الناس بأبيها ، وفي ذلك قالت عائشة : « ما رأيت أحداً من خلق الله اشبه حديثاً وكلاماً برسول الله (ص) من فاطمة »(١)

وكنموذج على بلاغتها لكتفي بهذه الخطبة :

قال سويد بن غفلة : لما مرضت فاطمة سلام الله عليها ، المرضة التي توفيت فيها ، دخلت عليها نساء المهاجرين والأنصار يَعُدنها . فقلن لهـا : كيف أصبحتِ من علّتك يابنت رسول الله ؟ فحمدت الله ، وصلّت على أبيها ، ثم قالت : -

نص الخطبة

« أصبت والله عائفة لدنياكنّ ، قالية لرجالكن ، لفظتهم (٢) بعد أن عجمتهم (٣) ، وسئمتهم (٤) بعـد أن سبرتهم (٥) ، فقبحاً لفلول الحد ، واللعب بعد الجد ، وقرع الصفات ، وصدع القناة ، وختَل الآراء(٦)

---

(١) ابن عبد ربّه : العقد الفريد ج ٣ .

(٢) لفظتهم : رميت بهم .

(٣) عجمتهم : خبرتهم .

(٤) سئمتهم : مللتهم .

(٥) سبرتهم : جربتهم واحداً واحداً .

(٦) ختل الآراء : زيفها وخدعها .

وزلل الأهواء ، وبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون : لاجرم لقد قلدتهم ربقتها وحملتهم أوقتها (١) : وشنت عليهم غاراتها ، فجدعاً وعقراً وبعداً للقوم الظالمين :

ويحهم أنى زعزعوها عن رواسي الرسالة ، وقواعد النبوة والدلالة ، ومهبط الروح الأمين ، والطبين (٢) بأمور الدين والدنيا ؟ ! ألا ذلك هو الخسران المبين !

وما الذي نقموا من أبي الحسن ؟!

نقموا ـ والله ـ منه نكير سيفه ، وقلة مبالاته لحتفه ، وشدة وطأته ونكال وقعته ، وتنمّره (٣) في ذات الحق ، وتالله لو مالوا عن المحجة اللايحة ، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة لردّهم إليها ، وحملهم عليها ولسار بهم سيراً سجحاً (٤) لا يكلم (٥) حشاشه ، ولا يكلّ سائره ، ولا يملّ راكبه ، ولأوردهم منهلاً نميراً صافياً روّياً ، تطفح ضفتاه ، ولا يترنق جانباه . ولأصدرهم بطاناً ، ونصح لهم سراً وإعلانا : ولم يكن يتحلى من الدنيا بطائل ولا يحظى منها بنائل ، غير ريّ الناهل وشبعة الكافل ، ولبان لهم الزاهد من الراغب ، والصادق من الكاذب . ولو أن أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين !

---

(١) الأوقة : الثقل .

(٢) الطبين : الفطن الحاذق.

(٣) تنمّره : غضبه .

(٤) سجحاً : سهلاً .

(٥) الكلم : الجرح .

ألا هلمّ فاسمع !! وما عشت أراك الدهر عجباً !! وإن تعجب فعجب قولهم !!

ليت شعري ، إلى اي إسناد استندوا ؟! وإلى أي عماد اعتمدوا ؟ وبأية عروة تمسكوا ؟! وعلى أيــة ذرية أقدموا واحتنكوا ؟ ! (١) لبئس المولى ولبئس العشير ، وبئس للظالمين بدلاً .

استبدلوا - والله - الذنابى (٢) بالقوادم (٣) ، والعجز (٤) بالكاهل (٥) فرغماً لمعاطس (٦) قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . ويحهم أفمن يهدي إلى الحــق أحقّ أن يُتّبع أم من لا يهدّي إلا أن يُهدى فمالكم كيف تحكمون ؟!

أما لعمري لقد لقحت ، فنظرة ريثما تنتج ، ثم احتلبوا ملء العقب (٧) دماً عبيطاً ، وزعافاً مبيــداً ، هنالك يخسر المبطلون ، ويعرف البطالون غبّ (٨) ما أسّس الأولون ، ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً ، واطمئنوا للفتنة جأشاً ، وأبشروا بسيف صارم ، وسطوة معتدٍ غاشم ، وبهَرَج شامل ، واستبداد من الظالمين ، يدع فيئكم زهيداً ، وجمعكم حصيداً . فياحسرة لكم

---

(١) احتنكوا : إستولوا .

(٢) الذنابى : ذَنَب الطائر .

(٣) القوادم : مقادم ريش الطائر .

(٤) العجز : مؤخر الشيء .

(٥) الكاهل : مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق .

(٦) معاطس : جمع معطس ، وهو الأنف .

(٧) القعب : القدح .

(٨) الغب : العاقبة .

وأنى بكم وقد عُميّت عليكم ! أنلزمكموها وانتم لها كارهون ؟! » (١) .

التحليل الادبي :

هذه الخطبة نموذج واحد من بلاغة بضعة النبي صلى الله عليه وآله فاطمة الزهراء عليها السلام . وهي عند التحليل الأدبي ترقى إلى مصاف النماذج الفذة للنثر الفني في عصر صدر الاسلام . وإذا استثنينا بلاغة الامام علي بن أبي طالب عليه السلام ، فان للناقد الأدبي أن يحكم بسهولة : قصور كل من عاش في تلك الفترة ، بل وحتى في الفترات اللاحقة لها ، عن مسايرة الزهراء في مستواها البلاغي الشامخ .

وليس هذا الأمر بغريب ، بعد أن كانت الزهراء بضعة النبي ، وزوجة الامام أمير المؤمنين . فهيأ لها أبوها في صباها ، وزوجها في ريعان شبابها فرصة الابداع الأدبي ، والبلاغة التامة ، والفصاحة الكاملة في حديثها العام فضلا عن خطبة تلقيها على مسامع وفدٍ من نساء المهاجرين والأنصار .

وإذا أردنا أن نحلّل هذه الخطبة القصيرة على ضوء الاتجاهات الحديثة في النقد الأدبي نجد أنها : ـ

(١) أبدعت إبداعاً تاماً في تضمين الآيات القرآنية في أثناء الخطبة ، ذلك التضمين الذي قلما ينجح فيه الأدباء . فان نجاح التضمين يظهر متى بدا للقارىء وكأنه يقرأ عبارة واحدة مترابطة بين أجزائها ترابطاً وثيقاً ، فلا يحسّ بانتقال سريع من نموذج إلى آخر .

وفي الخطبة نجد هذا اللون من النجاح في التضمين واضحاً تماماً ،

---

(١) أحمد بن علي الطبرسي : الاحتجاج ، ج ١/١٤٧ . مطبعة النعمان ، النجف الاشرف ـ ١٣٨٦ هـ .

فنرى الزهراء تستشهد بآيات من القرآن في قولها :

« بئسما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم ، وفي العذاب هم خالدون » .

وقولها : « ألا ذلك هو الخسران المبين » .

وقولها : « فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً : : ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » .

وقولها : « هنالك يخسر المبطلون » .

وأخيراً قولها : « وأنى بكم وقد عميت عليكم ! أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » وهي في ذلك كله تجيد الربط بين كلامها وبين الآية وتحسن حبك بعضها إلى بعض .

(٢) أجادت أيضاً في استعمال الأساليب البيانية من كناية واستعارة وفي استخدام المحسّنات البديعية لفظية ومعنوية كالجناس والطباق والتضمين والسجع الفني .

أ ـ خذ مثلاً على ذلك قولها : « استبدلوا ـ والله ـ الذنابى بالقوادم والعجز بالكاهل » فان الذنابى عبارة عن ذنب الطائر ، والقوادم : مقادم ريشه ، والعجز : مؤخر الشيء ، والكاهل : مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق .

وهذه استعارة لطيفة : فقد أرادت الزهراء عليها السلام أن القوم أزاحوا صاحب الحق الشرعي في الخلافة عن التصدي لها وأجبروه على بيعة من هو دونه في علم وفضل وورع وسابقة في دين ، فكانوا بذلك كمن استبدل قوادم الطائر بذنبه ، واستعاض عن الكاهل بالمؤخرة .

وقد أشار الامام أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المعنى أيضاً حين قال « أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وهو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ، ينحدر عني السيل ، ولا يرقى إلي الطير » .

ب ـ واستعارة جميلة أخرى نلاحظها في قولها عليها السلام : « أوردهم منهلاً نميراً » ، ففيه إشارة إلى أن الظروف لو سمحت للامام في الحكم وتولي أمور المسلمين بنفسه لكان يقودهم إلى حياة إسلامية سعيدة لا أثر فيها للظلم والجشع والاستغلال والإجرام والباطل . . . عندئذ كان الجميع ينهلون من منهل الحق والعدل وينعمون بالدعة والاستقرار .

جـ ـ لما كان التعبير برغم الأنف مبتذلاً ، عدلت عنه الزهراء إلى قولها : « فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » وهذه كناية بديعة ، حيث كنّت عن الأنف بالمعطس .

د ـ يلاحظ السجع المفرد والمزدوج في هذه الخطبة في أبدع صوره من ذلك قولها : « لو مالوا عن المحجة اللائحة ، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة ، لردّهم إليها ، وحملهم عليها » .

وكذلك السجع في (طائل) و (نائل) و (كافل) ...

وقولها أيضاً : « يدع فيئكم زهيداً ، وجمعكم حصيداً » .

(٣) استخدمت بعض الأمثال العربية المتداولة ، في الخطبة مثل : « وما عشت أراك الدهر عجباً » .

(٤) اشتملت على كل مقومات الخطبة الناجحة من الاعتماد على الفواصل والجمل المتناسقة ، والخروج من أسلوب الإخبار إلى الاستفهام ، والاستناد إلى الحجج الرصينة والشواهد المحكمة .

وكمثال على تناسق الفواصل ، نأخذ قولها :

ليت شعري . . إلى أي إسناد استندوا ؟!

وإلى أي عماد اعتمدوا ؟ !

وبأية عروة تمسكوا ؟ !

وعلى أية ذرية أقدموا واحتنكوا ؟!

إنّ لتناسق الفواصل ، وتنوعها من نموذج إلى آخر أهمية بالغة في إضفاء طابع النجاح على الخطبة . ولذلك نجد أن هـذه الخطبة للزهراء استوفت جميع تلك العناصر واشتملت على كل تلك المقومات .

وانظر اليها كيف تنتقل من أسلوب الإنشاء إلى الاخبار في قولها : وما الذي نقموا من أبي الحسن ؟ !

وتجيب هي بقولها : نقموا منه نكير سيفه ...

(٥) وأخيراً نجد في هذه الخطبة الراقية وصفاً دقيقاً لنفسيّات المسلمين في ذلك العصر ، وإشارات واضحة إلى المجتمع المدني بصورة خاصة ، والآثار الوخيمة التي ظهرت في المجتمع الاسلامي بصورة عامة من جراء اغتصابهم المنصب الإلهي العظيم من محله وإسناده إلى غير أهله .

تبدأ بوصف فشل المهاجرين والأنصار في الامتحان الذي مرّوا به من موقفهم تجاه النبي صلى الله عليه وآله ، الذي سمعوه يقول غير مرة : « ياعلي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبي بعدي » (١) .

ويقول : « علي أخي ووصيي ووزيري وخليفتي من بعدي » (٢) .

وقوله يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبّه الله ورسوله » (٣) فتمنى جميع المسلمين أن يكونوه ، وإذا به يسلّم الراية الى علي عليه السلام . . . الى غير ذلك من النصوص والأحاديث .

. . . واذا بهم بعد وفاته ينسجون المؤامرة الظالمة فيزيحون الخلافة عن صاحبها الشرعي الذي تحدث عنها قائلاً : « ان محلي منها محل القطب

---

(١) احمد بن حنبل : المسند ، ج ١ / ٣٣٠ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٢ / ٢١٧ .

(٣) الحاكم : المستدرك على الصحيحين ، ج ٣ / ١٢٣ .

من الرحى ، ينحدر عنى السيل ولا يرقى إليّ الطير » (١) ، في حين أنه الخبير بدقائق الأحكام وأسرارها ، والعليم بأسس الوحي والرسالة .

في الفقرة الثانية تنتقل الزهراء عليها السلام الى الأمور التى حملت المسلمين على التخلي عن نصرة علي عليه السلام ، والإنتقام منه ، فتعدد لنا أموراً خمسة : ـ

١ ـ نكير سيفه : أي شجاعته وقتله فرسان العرب .

٢ ـ قلّة مبالاته لحتفه : فقد باع نفسه لله ، ومن كان كذلك فلا يبالي بالموت .

٣ ـ شدة وطأته : ضبطه للامور .

٤ ـ نكال وقعته .

٥ ـ تنمّره في ذات الله : فلا يعرف معنى للمداهنةوالاحتيال ، إنما هي الحقيقة يطلبها اينما وجدها ، لا يلتمس المبررات والأعذار الواهية التي يراد بها إبطال الحق او إحقاق الباطل .

ويجمع الجميع كونه مثالاً للشخصية الاسلامية الفذة في اسمى صورها وأرقى مراتبها .

بعد هذا ، تستطرد عليها السلام في وصف الحالة التي كانوا يصلون اليها لو فسحوا المجال للامام أمير المؤمنين عليه السلام يأخذ بزمام الحكم ، ويدير دفة الأمور ، حيث الأمن والاستقرار ، وحيث السعادة والرفاه ، وحيث الحياة الاسلامية الزاهرة التي لا أثر فيها لظلم أو اعوجاج ، ولامجال لفقر أو جهل ، ولا استهتار أو فساد . ذلك أن كفاءة رئيس الدولة وإحاطته بجميع نوحي الأمور التي تحقق الصالح العام للامة عامل فعّال في تقدم المجتمع وازدهاره .

---

(١) نهج البلاغة ، شرح محمد عبده ج ١ / ٢٥ مطبعة الإستقامة ، القاهرة.

وفي ظل حكومة الامام علي عليه السلام فقط ، كانت تزدهر التجارة وتتقدم الصناعة ، وتتطور الزراعة . ويسيطر الرخـــاء ، والرفاه على شتى مرافق الحياة .

والى ذلك أشارت حين قالت عليها السلام : « ولأوردهم منهلاً نميراً صافياً رّوياً ، تطفح ضفتاه ، ولا يترنق جانباه ، ولأصدرهم بطاناً ونصح لهم سراً واعلاناً » .

ثم استشهدت بقوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكنهم كذّبوا فأخذناهم بمـــا كانوا يكسبون » (١) .

وبعد أن تبيّن حال الأمة الاسلامية في استبدالها صاحب الخلافـــة الشرعية بمن هو دونه في الكفاءة والعلم والفضل والتقوى ، تتنبأ لهم بالمآسي التي ستلاقيهم ، وتنذرهم بمصيرهم الأسود الذي سيتحملون أوزاره . . . فتلك هي النتيجة الطبيعـــة لكل انحراف ، عن جادة الحق ، وتنكّب عن الصراط المستقيم الذي خطه الله بحكمته .

---

(١) سورة الأعراف / ٩٥ .

عصمتها

ولو أن المسلمين ـ جميعاً ـ اتفقوا على عصمة الأنبياء والأوصياء ، وعصمة النبي محمد صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرين من بعده بالخصوص لسهل علينا حسم النزاع في كثير من المسائل المتعلقة بالحوادث التي وقعت في صدر الاسلام ، وبعد وفاة النبي (ص) على وجه التحديد .

أجل ! كان لنا أن نتمسك بدليل العصمة لنصحح تصرفات النبي(ص) وعلي والزهراء وذريتها الطاهرة المنصوص عليهم بالامامة ، ونشنّع على كل من خالفهم في قول أو فعل ...

ولكن أنى لنا بذلك وقد شكّك البعض في عصمة النبي (ص) بالذات ، وقصر بعضهم عصمته على الكبائر دون الصغائر ، وحدّدها آخرون بصورة العمد دون الخطأ ، وذهب غيرهم إلى اختصاص ذلك بما بعد البعثة لاقبلها (١) .

ومهما يكن من أمر هذا الخلاف ، فلسنا بالذين نتحرج من متابعة الرأي الصحيح إذا قام عليه دليل قطعي من العقل والشرع ، وإن كان ذلك الرأي مخالفاً لما التزمه كبار السلف !!

كما لا يهوّل علينا قول مؤرخ كبير كابن أبي الحديد في هذا الصدد: « أما الكلام في عصمة فاطمة عليها السلام فهو بفنّ الكلام أشبه » (٢).

---

(١) تعرضت لذكر هذه الأوجه في : دفاع عن العقيدة ص ١٧٢ ـ ١٧٤ .

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١٦ / ٢٨٣ ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ـ ١٩٦٢ م .

نحن أتباع الدليل نسير معه ما ظلّ ينير لنا سراجاً يهدينا سواء السبيل ونتوقف حيث يوشك زيت هـذا السراج على النفاذ ، أو الانطفاء أمام الرياح العاتية ...

وإذا أردنا إثبات عصمة الزهراء عليها السلام ، فان علينا إثبـات عصمة النبي صلى الله عليه وآله الذي أكد على عصمتها ، لكيـلا نكون قد ادّعينا فيها ما ليس في أبيهـا ، أو مستندين إلى ما لم يؤمن به الخصم فيدفع استدلالنا بكونه نوعاً من المصادرة على المطلوب .

* * *

أما الأدلة العقلية التي تُساق لإثبات عصمة النبي (ص) فهي :

(١) **انتفاء الغرض من البعثة** : ـ

مما لاشك فيـه أن الغرض من بعثـة الأنبياء انما هو هداية الناس وإرشـادهم الى الطريق الصحيح ، وذلك بتكليفهم بالتكاليف التي تضمن سعادتهم وفلاحهم .

وهذا لا يحصل إلا باتّباع الناس لأوامر النبي وانقيادهم له .

وهذا أيضاً لا يكون إلا بعدم احتمالهم الخطأ والجهل والكذب في حقهم .

ومن الواضح أنـه لو انتفت العصمة من الأنبياء ، جاز في حقهم الكذب والخطأ ، واذا جـاز في حقهم ذلك لم يحصل الانقياد لهم ، وإذا لم يحصل الانقياد لهم إنتفى الغرض من بعثتهم ، فيكون ذلك عبثاً ، والعبث يستحيل على الخالق الحكيم .

(٢) وجوب متابعة النبي : —

إن النبي (ص) تجب متابعته . فاذا ارتكب معصية - في فرض عدم عصمته - فاما أن يطيعه الناس ويتبعونه ويفعلون ما يفعل ، أو لا يطيعونه : فان كان الأول لزم من ذلك أن يكون الله سبحانه آمراً بالقبيح ، لانه أمر باتباع النبي ، والمفروض أن النبي مرتكب للقبيح :

وإن كان الثاني لزم منه انتفاء فائدة البعثة : وهذا ما أبطلناه في الدليل الاول :

(٣) النهي عن المنكر : —

لو جاز صدور الذنب من النبي وارتكاب المنكرات فاما أن يسكت الناس عنه أو ينهوه عن المنكر .

فعلى الاول لا يبرر صدور الذنب من النبي ترك الناس النهي عن المنكر لانه واجب على الجميع، وتجاه الجميع ، فلا يجوز تعطيل هذا الواجب .

وعلى الثاني فانه يستلزم إيذاءه وجرح عواطفه وهو ما نهى الله عنه حيث قال : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً » (١) :

• • •

هذه هي الأدلة العقلية على وجوب العصمة في النبي : ولما كانت الخلافة امتداداً للنبوة ، وصورة مضارعة لها لا تختلف عنها إلا في الوحي

---

(١) سورة الاحزاب /٥٧ .

فان الخليفة (الامام) هو أيضاً يجب أن يكون معصوماً .

هذا في مقام الاثبات .

أما في مقام الثبوت فقد اتفقت الأمة على أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يصدر منه طيلة عمره ما يخلّ بعصمته . واذا تذكرنا أن العرب كانت تبذل كل طاقاتها لهدم أساس الدعوة الاسلامية ، ومعارضة النبي (ص) في دينه الجديد ، وأن الدواعي للتشنيع عليه كانت متوفرة لو صدر منه ذنب أو أمر مخلّ بالمروءة والشرف حتى قبل البعثة ، لكان في ذلك المجال الفسيح لمعارضته والقيام بوجهه .·. وإذ لم يصدر مثل هذا التشنيع من قبل المشركين فانه دليل على عصمته وتنزهه عن الذنوب والمعاصي .

• • •

وإذ ثبتت لدينا عصمة النبي صلى الله عليه وآله فاننا ننتقل إلى عصمة الصديقة الزهراء .

لقد شهد بعصمتها الكتاب الكريم حيث قال : ـ

١ ـ « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » (١) .

ومن الثابت أن أهل بيت النبي الذين أكد على رعاية حقهم والتزام أوامرهم والتمسك بهم هم : علي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين .

وقد تقدم تحت عنوان (آية التطهير) ما يثبت ذلك . فهذه الآية تدل دلالة صريحة على أن أهل البيت منزهون عن كل معصية ومطهرون من كل ذنب .

٢ ـ « فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل

---

(١) سورة الاحزاب / ٣٣ .

لعنة الله على الكاذبين » (٢) :

وقد سبق أن ذكرنا أن المراد من (نساءنا) في هذه الآية الكريمة فاطمة عليها السلام . وهي تدل على أن الخمسة الذين أمر الله نبيه بمباهلة النصارى بهم إنما هم على درجة من التقوى والاستقامة والمنزلة عنده عزوجل بحيث يستحقون اختيارهم لهذه المهمة العظيمة .

إنهم الصفوة المرضية من عباده ، والمباهلة لا تصح بمن تصدر منهم المعاصي والذنوب .

وحسب الزهراء أن تكون « مختارة الله ليباهل بها رسول الله من تسع نسوة هن أمهات المؤمنين ، ومن بين نسوة زكيّات المغرس في المنبت الاثيل والشرف الموروث في المجد المؤثل ، خفرات عمرو العلى ، غرة المجد وعقائل شيبة الحمد ، كأم هاني وصفية .

ولا يجوز عند العقل أن يكون إختيار ولا تكون أفضلية ، ولا يتأتى الاختيار إلا إذا لم يكن هناك كمال مطلق وأفضلية على سائر النساء ، وإلا لزم الترجيح بدون مرجح ، وهذا مستحيل عند العقل ، لا يجوز على الحكيم.

ومن أجل هذا الاختيار نفهم التفضيل المطلق بدون مشاركه ، لان العقل لا يفهم الاختيار مع التساوي في الفضيلة والمشاركة في الكمال :

فلابد إذن من أفضلية وأكملية ليقع الاختيار صحيحاً طبق العقل :

وإذا كانت سلام الله عليها قد اختارها الله مع من إختار ، فما ذلك إلا من سمو القدس وغلبة الروحانية في الانسانية الطاهرة المهذبه ، واذا غلبت الروحانية فقد تكاملت المثل العليا في النسوية العالية .

وعلى قدر نشأة النواميس الروحية في النفس البشرية تسمو الانسانية وترتفع الى منزلتها السامية التي أعدّت لها في المكان الأرفع :

---

(١) سورة آل عمران /٦١ .

وحيث تجمعت القوى الروحيـة والنواميس القدسية في هـذا الملاك النسوي الطاهر فقد تهيأت النفس للمثل العليا وخرقت العادة في اطرادها البشري حتى تستحيل الى معجزة في كمال الوجود ، وكمال الفضيلة :

وهكذا كانت فاطمة بنت محمد عليه وعليها السلام . فقد تجمع في نسويتها نواميس روحية وكمالات نفسية رفعتها في الانسانية الى أسمى الدرجات التي يصح في العقل أن ترتفع اليها امرأة ، فهي اذن سيدة نساء العالمين (١) .

* * *

أما شهادة النبي صلى الله عليه وآله بعصمة الزهراء فتظهر من خلال النصوص الآتية : -

١ - قوله (ص) : « إن الله يغضب لغضب فاطمة ، ويرضى لرضاها(١) :

ومن الواضح أن الله لا يغضب لغضب عبد من عباده إلا إذا كان معصوماً ، وإلا فان غضبه لغضب العبد المذنب ورضاه لرضاه يكون إقراراً له على ذنوبه ، وتشجيعاً لاستمراره في ارتكاب المعاصي ، وهذا قبيح ، يتنزه الله تعالى عنه .

٢ - قوله (ص) : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » (٢) .

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على احتلال الصديقة الزهراء القمة في الكمال النسوي . وهذا لايحصل إلا بتنزهها عن الذنوب والمعاصي .

(٣) قولـه (ص) : « إني مخلف فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ما ان تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً ، وإنهما لن يفترقا

---

(١) عبد الله السبيتي : المباهلة ، ص ٦٧ - ١٣٦٦ هجـ .

(٢) أحمد بن سليمان القندوزي : ينابيع المودة ص ١٧٣ .

(٣) البخاري : الجامع الصحيح . نقلاً عن القندوزي : ينابيع المودة ص ١٧٢ .

حتى يردا عليّ الحوض » (١) .

فقد أمر (ص) بالتمسك بالثقلين ، وقارن العترة بالكتاب . . . . وهذا أوضح دليل على عصمة العترة ، لأنهم لو لم يكونوا معصومين لم تصح مقارنتهم بالكتاب المنزل وايجاب التمسك بهم .

على أن هناك نصوصاً كثيرة تؤيد ما ذهبنا اليه ، ولكن في ما ذكر غنى عن الاطالة .

---

(١) روى ذلك زهاء ٢٠٠ راوياً أحصاهم السيد مير حامد حسين في موسوعته القيمة : (عبقات الأنوار في إثبات امامة الأئمة الاطهار) ، منهم :

- البخاري في (صحيحه) .
- أحمد بن حنبل في (مسنده) .
- الحاكم النيسابوري في (المستدرك) .
- مسلم في (صحيحه) .
- الترمذي في (سننه) .
- الطبراني في (المعجم الكبير) .

وعى الموقف

إدراك أبعاد الموقف الذي يقفه الانسان ، لا يتسنى لكل أحـد ، فهناك الكثيرون ممن يقفون مواقف معينة ، دون أن يصدروا في موقفهم ذاك عن وعي وتخطيط .

بينما تمتاز القلة من الأفراد بنبوغ وعبقرية يستطيعون بهما من التعمق في الأمور ، وتناولها بأسلوب فلسفي دقيق .

• • •

كذلك الزهراء عليها السلام في خطبتها العظيمة التي ألقتها على جماهير المسلمين في باحة المسجد :

لقد ارتج المسجد لخطبتها : : :

وارتج الناس لها حتى ضجوا بالبكاء والعويل . : :

وارتجت العقول المفكرة في ذلك العصر - على قلتهـا - من عظمة الفلسفة التي تضمنتها خطبة الصديقة الزهراء عليها السلام في عصر كان يرى المرأة لا تقدر أن ترتفع إلى مستوى الرجل أو مستوى الانسان !!

صغت القلوب قبل الآذان إلى حديث فاطمة ، ثم أدركت أنها على جانب عظيم من الوعي والإدراك :

ذلك أنها تناولت معظم جوانب التشريـع الاسلامي فذكرت لكل جانب حكمته وفلسفته : : .

حلّلت الأمور تحليلاً دقيقاً ، وذكرت المشاكل والآفات الاجتماعية والفردية ، والاقتصادية والسياسية ، والنفسية والاخلاقية . : : ثم أوضحت كيف أن الاسلام عالجها علاجاً حكيماً ، وأنه كيف استطاع أن يستأصل جذور الشر والفساد والتحلل والانهيار من المجتمع العربي :

ذكرت ذلك كلّه وأبانت الحلول الاسلامية العظيمة لمختلف المشاكل والمآسي ، فأثبتت أن الاسلام هو الدين القيم ، وهو الدين الخالد ، وهو

الشريعة التي ستبقى أبد الدهر لأنها تتضمن أسس السعادة الانسانيـة ولا تدع زاوية من زوايا الحياة إلاّ ووضعت لها علاجاً حكيماً :

وعلى سبيل النموذج تعال معي أيها القارىء الكريم لنستخرج نقاطٍ جلية من هذه الخطبة البليغة ، نجد فيها وعياً قصر اكثر الصحابة من إحرازه على كبر سنهم ، وحازته الزهراء عليها السلام على صغر سنها ... وهذا إن دل على شيء فلا يدلّ إلا على أن أهل البيت عليهم السلام هم الصفوة المختارة التي اختارها الله تعالى لحمل رسالته إلى الأفراد وضمان حياة المثل العليـا والسلوك الحميدة بين بني البشر :

• • •

(١) الصلاة :

تستعرض الزهراء عليها السلام الحكمة في تشريع الصلاة ، فتلخصها في جملة قصيرة ، حيث تقول :

« والصلاة تنزيها لكم عن الكبر » .

إن الاسلام حيث يقرر العبودية لله تعالى فانه يقصـد من وراء ذلك أن يحرر الانسان . فلئن بدأت الجولة بالعبودية لله وحـده فانها تنتهي بالحرية التامة التي تجعل الفرد لا يخضع لأية قوة مهما كانت عاتية :

هكذا تقوم معركة التحرير في المنطق الاسلامي . أما في منطق المذاهب التي تدعو إلى الحرية المطلقة ، فان الجولة فيها وإن بدأت بالحريـة لكنها تنتهي بالعبودية للشهوة ، والعبودية للجاه ، والعبودية للأطماع .

هنا تقرر الزهراء عليها السلام ـ وبوجه قاطع ـ أن الفائدة التي تعود على الانسان من إقامته للصلاة هي تنزهه من الكبر ، ذلك الداء الوبيـل

الذي يُفقد التعقل والادراك من صاحبه ، ويجعله يسبح في عالم من الخيال الفارغ ، الذي يجد فيه نفسه فوق مستوى الآخرين .

على أن السمو الروحي فائدة أخرى تعود على الانسان المصلّي ، ذلك ما قرّره القرآن الكريم حيث قال : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

(٢) **الزكاة** :

وقد تعجب حين تسمع الزهراء عليها السلام تقول :

« والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق » .

فتقول : وكيف يكون أداء الزكاة نماءً في الرزق في حين أن الفرد يبذل أمواله وينفقها ، والانفاق عكس النماء ؟ . لكن عجبك هذا سرعان ما يزول إذا عرفت أن النتيجة التي تحصل من مساعدة الضعفاء والفقراء هي ارتفاع مستواهم الاقتصادي وبلوغهم مرحلة مناسبة من الانعاش المادي . . الامر الذي يؤدي إلى زيادة القوة الشرائية عند اكبر كمية من أفراد المجتمع ومن أوليات ما يتعلمه دارسو الاقتصاد أن ازدياد القوة الشرائية عند الأفراد يؤدي إلى زيادة الانتاج وزيادة الاقبال على السلع والخدمات ، الأمر الذي ينتهي بالفائدة والسعة في الرزق لجميع الأفراد .

هذا مضافاً إلى أن الله تعالى وهو الرازق الأول سيكافىء هؤلاء الذين ينفقون أموالهم في سبيله بأضعاف ما أنفقوا فيهيىء لهم وسائل التقدم والنجاح دائماً .

إننا إذا استقرأنا أحوال الأفراد الذين يمدّون يد العون إلى الفقراء والضعفاء بسخاء ، ويسهمون في المشاريع الخيرية ، ويؤدون ما عليهم من واجبات مالية نجد أن غالبيتهم يسيرون في خط تصاعدي بالنسبة إلى الثروة

وزيادة الدخل :

(٣) الصوم :

وحين أتت الزهراء عليها السلام على ذكر الصوم قالت :

« والصيام تثبيتاً للاخلاص »

متى يستطيع الفرد من إثبات إخلاصه لله تعالى ؟! عندما ينجح في السيطرة على غرائزه وشهواته وتوجيهها الوجهة المعقولة التي لا إفراط فيها ولا تفريط : وفي الصيام تتجلى أعلى مظاهر ضبط النفس والسيطرة على زمام الشهوات . فان الانسان - وبمحض إرادته - يمسك عن الطعام طيلة النهار ، وكذلك يمسك عن الشراب وعن كثير من الأمور كممارسة الوظيفة الجنسية وما شاكلها : وبذلك يثبت إخلاصه لله تعالى :

(٤) الحج :

أما عن الحج فقد قالت عليها السلام :

« والحج تشييداً للدين »

ان هذا الواجب الاسلامي المقدس يهدف إلى أسمى الغايات وأعظم المقاصد ، ذلك هو التقاء جهود المسلمين جميعاً وتبادل وجهات النظر فيما بينهم في المسائل والشؤون التي تهمهم .

وجميع مناسك الحج ترمز إلى حقائق أعمق مما يتصوره الافراد السذّج. فالطواف مثلاً حول البيت يمثل ضرورة دوران نشاط الفرد حول نقطة مركزية واحدة هي رضا الله تعالى ، وتعبيراً عن هذه المشاعر فان

الفرد يدور حول البيت ويطوف به ليؤكد تأسيس جميع أعماله وأفكاره وأقواله على أساس من رضا الله وإرادته .

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يكون الحج تشييداً للدين ، فهو بمثابة مؤتمر موسع يستوعب مئات الألوف من المسلمين كل عام ، كلٌ يحاول أن يستفيد مما لدى أخيه المسلم من تجارب وآراء .

(٥) العدل :

وعن العدل قالت عليها السلام :

« والعدل تنسيقاً للقلوب »

إن العدل أساس الاستقامة في النظام الاجتماعي ، وهو الضمان الوحيد لسيطرة الأمن والهدوء على جميع الناس :

إن التشريع العادل هو الجدير بالبقاء لأنه يعامل الناس جميعاً معاملة واحدة لا يميز فيها بين غني وفقير ، وشريف ووضيع ، وقوي وضعيف.

القوي هو صاحب الحق في منطق الاسلام .

والضعيف هو المغلوب على أمره ، الذي لا يملك حجة على مايذهب :

الغني هو الذي يملك إيماناً خالصاً وعقيدة راسخة .

والفقير هو الذي يتذبذب في تفكيره وعقيدته :

الشريف هو الذي يستغل مواهبه وطاقاته في الخير .

والوضيع هو الذي لا يرتفع عن مستوى البهائم :

وبعد هذا كله فهم أمام القانون سواء ، يقوم ميزان العدالة بالحكم فيما بينهم بالقسطاس المستقيم . وهذا أدعى للتآلف بين القلوب وتنسيقها، كما قالت الزهراء .

(٦) وجوب طاعة أهل البيت :

وهكذا تستطرد الزهراء عليها السلام في حديثها عن فلسفة الأحكام فتقول :

« وطاعتنا نظاماً للملة »

لاشك أن الأمة تحتاج إلى من يأخذ بيدها نحو شاطىء الخير والهداية دائماً ، إنها لا تستغني عمن يقوم بدور الإرشاد والتوجيه : والذي يقوم بهذه المهمة هم أهل البيت عليهم السلام ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

وعلى هذا الأساس فان طاعة أهل البيت هي الركيزة الأولى في بناء النظام الاسلامي .

ومن هنا جاء الحث على اطاعتهم في القرآن الكريم حيث قال عزّ من قائل : « أطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » .

(٧) الامامة :

وتكملة لموضوع الطاعة تقول عن الامامة :

« وإمامتنا أماناً من الفرقة »

الامامة ليست إلا امتداداً للنبوة ، وظلاً لها ، واستمرارية لتلك المسؤلية العظمى التي يضطلع بها النبي في قيادة الامة وتوجيهها . وعلى هـذا فان نصب الامام من قبل الله تعالى كالنص على النبي وتعيينه ضروري لعدم تفرق الناس وتشتتهم ، ولجمعهم على كلمة التوحيد .

إن الأئمة عليهم السلام هم الانوار الساطعة في الأرض الذين يرشدون

الناس الى الاحكام الاسلامية ، ويجنبونهم من المشاكل والأخطار التي تسهب لهم الدمار والشقاء .

الأئمة عليهم السلام هم الأعلام الواضحة التي يستضيء بها الناس في متاهات الحياة .

وانطلاقاً من هذه الزاوية أكدت الزهراء عليها السلام في كل مواقفها البارزة على دور الامام علي عليه السلام في مسألة المصير الاسلامي ، والقيادة بأجلى مفاهيمها :

(٨) الجهاد :

وهل يشك أحد أن « الجهاد عز الاسلام » كما قالت الزهراء عليها السلام ؟!

إن الدولة - أية دولة تحتاج إلى قوة دفاعية تحصنها ضد اعتداء الأعداء وتجاوزهم ، ومن هنا راحت الدول تصرف الملايين من الدنانير سنوياً على مسألة الدفاع .

وتشريع الاسلام للجهاد إنما هو تأكيد على ماعهدته البشرية من ضرورة تقوية المراكز الحساسة في الدولة منعاً للاعداء من إلحاق الأذى بالمواطنين :

وإلى هذا أشار القرآن الكريم في قوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

كما أكد عليه الامام أمير المؤمنين عليه السلام حين قال : « أما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنـــة فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة » .

(٩) الصبر :

وقالت عن الصبر :

« والصبر معونة على استيجاب الأجر »

من البديهي أن طريق الاصلاح ليس معبداً بالازهار والرياحين ، بل تعترضه العقبات والعراقيل ، وهو ملىء بالمخاطر ... وعليه فلابد على الفرد أن يواجه المشكلات برحابة صدر ويعمل على حلها بدقة واتقان .

هنا يبرز دور الصبر واهميته ، حيث أنه يمنح الانسان طاقة لمواصلة السير حتى النهاية . ولذلك فطبيعي أن يكون معونة على استيجاب الأجر من الله تعالى .

(١٠) الامر بالمعروف :

والأمر المعروف هذه الدعامة العظيمة قالت الزهراء عليها السلام عنه .

« مصلحة العامة »

أجل ، فان قوام المجتمع إنما هو بتكاتف أفراده وتواصيهم على الحق والخير ، بجعل كل فرد من نفسه رقيباً على الآخرين ، يدعوهم الى التزام العمل الصالح ، يحثهم على السلوك الفاضل . ولهذا أثره الكبير في تقدم المجتمع وانتشار الوعي بين أفراده .

إن الأمر بالمعروف في منطق الزهراء عليها السلام - وهو لايعدو أن يكون منطق الاسلام بالذات - يحقق اكبر مقدار ممكن من المصلحة للامة.

كل فرد من أفراد الأمة الاسلامية راع والجميع مسؤولون عن رعيتهم ولا يخفى أن الشعور بالمسؤولية أساس ضمان الحقوق لجميع الأفراد ، وأساس التقدم والنجاح .

(١١) النهي عن المنكر :

ومن مستلزمات الامر بالمعروف ، النهي عن المنـكر . وهما شقان لمبدأ واحد :

وعليها ترتكز سلامة المجتمع وازدهاره .

كل فرد يحاول اقتلاع جذور الشر والفساد من المجتمع ..

وكل فرد يعمل على ردع الخارجين على الآداب والتعاليم الاسلامية بالأسلوب النافع ..

كل فرد يدعو الى الخير والفضيلة ..

وهناك المجتمع الفاضل !!

(١٢) بر الوالدين

ثم ذكرت الحكمة في البر بالوالدين فقالت عليها السلام :

« وقاية من السخط »

إن الاسلام يحرص على تماسك المجتمع ووحدته ، والأسرة لبنة المجتمع وأساسه ، فلابد أن يولي الاسلام اهتماماً بالغاً نحو وحدة الاسرة وتشديد أواصر أفرادها :

انه يؤكد على رعاية حقوق الوالدين ، والبر بهما . وفي نفس الوقت يوصي الوالدين بالرفق بأطفالهما والتزام أسلوب معقول في تربيتهما :

هنا يظهر التقابل في الحقوق والواجبات ، ولكن هذا لايعني أن تقصير أحدهما في واجباته يبرر خروج الآخر أيضاً مما عهد به اليه من دور ، بل على العكس من ذلك فان عليه أن يقول لهما قولا كريماً :

(١٣) صلة الارحام :

وإذا فرغ الاسلام من التأكيد على وحدة الأسرة وتماسكها انتقل الى الأسر الأخرى التى ترتبط بهذه الاسرة بروابط القربى والرحم ، فأخذ يؤكد على ضرورة صلة الارحام .

وحين تأتي الزهراء عليها السلام الى هذا الموضوع تقول :

« وصلة الارحام منساة في العمر ومنماة للعدد »

أجل ، ان التواصل بين الأقارب وتعاطفهم ومساعدة بعضهم لبعض من أهم عوامل الرفاه والطمأنينة في المجتمع :

(١٤) القصاص :

أما القصاص فقد أوجبه الاسلام : « حقناً للدماء » .

ولا شك أنه الاسلوب الأمثل في معالجة الجرائم . لا يدانيه في ذلك أي تشريع : إن بعض البسطاء الذين لا يملكون نصيباً وافراً من العلم يتحاملون على الاسلام في قسوة عقوباته ، غافلين أنها الضمان الصحيح لعدم انتشار الجرائم في المجتمع :

إن الفرد الذي يرى النظام الجنائي في المجتمع قائماً على المقابلة بالمثل (أي القصاص) في الجرائم التي تقع على النفس يربأ بنفسه من أن يقدم على القتل : لأنه يعلم يقيناً أنه إذا قتل شخصاً فجزاءه القتل ، وإذا فقأ عين رجل فان عينه تفقأ . : .

أسألك بالله ، هل تسمح غريزة حب الذات للفرد بأن يعرّض نفسه للقتل عندما يقتل شخصاً ؟ !

إنه العلاج الحاسم للوقاية من الجرائم . :

أي شيء فعلته السجون حين راح المجرم يقضي فترة من حياته في زاوية السجن ؟ !

أجل ، تفنن المجرم أكثر ، واستفاد من تجارب زملائه . وتعلّم أنواعاً أخرى من الجرائم لم يكن يعرفها من قبل ، وكأننا أردنا من العقاب على الجريمة الإكثار منها .

كلا ، فان الحلول الأرضية فاشلة كلها ، ولتخلد شريعة الله التي جاءت بالحلّ الحاسم :

(١٥) الوفاء بالنذر :

وإذ يفي الانسان بالنذر الذي التزمه على نفسه تجاه الله ، فانه يؤكد على طاعته لله تعالى ، ومعرفة حق خالقه عليه ، وهو عندئذ يكون مستوجباً لمغفرته ورضوانه :

ومن هنا قالت الزهراء عليها السلام .

« والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة » .

(١٦) توفية المكاييل والموازين :

وعن هذا الأمر أيضاً تحدثت الزهراء عليها السلام فقالت :

« وتوفية المكاييل والموازين تغيراً للبخس »

إن الاسلام يحارب الاستغلال ، ويحارب الغبن ، ويحارب البخس . إنه لا يرتضي إلا العدل : : يريد من الأفراد جميعاً أن يعيشوا متضامنين

متكاتفين : وايفاء الميكاييل والموازين يقوم بدور مهم في تحقيق هذه الغاية . إنه لا يفسح مجالا للبخس والغبن ، بل يعطي لكل فرد حقه .

(١٧) النهي عن شرب الخمر :

أما عن حكمة النهي عن شرب الخمر فقد قالت سلام الله عليها :

« تنزيهاً عن الرجس »

والخمرة هذه الجرثومة الخبيثة التي حاربتهـا جميع الشرايع السماوية أوضح ما فيها أنها تذهب بالعقل ، وإذا سلبت من الفرد عقله ، فمـاذا سيكون يا ترى ؟ !

إنه وحش كاسر ، أو بهيمة تافهة .

من أجل ذلك وحرصاً على سلامة العقل فان الاسلام حارب الخمرة حرباً لا هوادة فيها . حتى أنه منع المسلمين من تزويج فتياتهم من شاربي الخمر ، فقد ورد في الحديث : « من زوّج كريمته من شارب خمر فقد قطع رحمها » .

(١٨) اجتناب القذف :

وعن الحكمة في اجتناب القذف من قبل المسلم قالت عليها السلام :

« حجاباً عن اللعنة »

أجل فالقذف يورث اللعنة التي تنصبّ على كل من يحاول أن يتهم بريئاً ، أو ينسب لشخص آخر من المساوىء ما ليس فيه .

(١٩) ترك السرقة :

وهل ترك السرقة إلا لكي يعيش الناس في أمان وهدوء ، شاعرين بكرامتهم وعدم اعتداء أي فرد على حقوقهم ؟ !

وهل هذا كله إلا العفة ؟ !

العفة عن الطمع في أموال الآخرين ، والعفة عن التجاوز على حقوق الناس ، والعفة عن الاعتداء على الغير .

(٢٠) حرمة الشرك :

وإذ أتت الزهراء عليها السلام على ذكر الشرك وحرمته قالت :

« وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية »

ومن الواضح أن أساس الايمان يقوم على التوحيد ، والاذعان للخالق الذي خلق الكون وما فيه ، ونظّم هذا العالم والعوالم الأخرى التي لا نشهدها ولا نعلم بها تنظيماً دقيقاً لا مجال لاعوجاج فيه .

الايمان بالله يستلزم توحيده وعدم الشرك به ، فان الله « لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر دون ذلك » .

خاتمة الجولة :

بعد هذه الجولة التي وقفنا فيها وقفات قصيرة عند كل زاوية من زوايا التشريع الاسلامي الواردة في هذه الخطبة ، لا أشك - قارئي الكريم - أنك قد خرجت معي بنتيجة ساطعة هي أن الزهراء عليها السلام أدركت

حقيقة الموقف ، ووعت روح الشريعة ، وتفهّمت أسس الاسلام ، ممـا جعلها جديرة كل الجدارة بأن تكون أحـد الخمسة الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، وأن تكون من ضمن العترة التي تعتبر الثقـل الآخر الذي ينضم الى كتاب الله تعـالى – الثقل الأكبر – ليكونا سوية وديعة رسول الله صلى الله عليه وآله في أمته .

بين عهدين

١ – وفاة النبي

٢ – بعد النبي

وفاة النبي !

يطل العام الحادي عشر للهجرة ، ويكاد رسول الله - لتوه - أن ينتهي من وضع الأسس والركائز الثابتة للشريعة الاسلامية التي كتب لها الله الخلود والبقاء ، باعتبارها خاتمة الشرائع :

ولابد للنفس الكبيرة من أن تعود الى بارئها راضية مطمئنة ، وقد حققت أعظم تحول في تاريخ البشرية :::

لابد لها أن تفيض الى من عرفته بعمق ، ودعت اليه باخلاص ، وضحت في سبيل إعلاء كلمته بجد وثبات .:.

لابد من يوم خط بالقلم!

والموت خُط على وُلد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة .:

• • •

خرج النبي صلى الله عليه وآله في آخر فجر من حياته الى الصلاة فصلى بالمسلمين للغداة ، وكان هذا آخر عهدهم برؤية تلك الطلعة المحبوبة وذلك النور الإلهي .

لم تزل شمس السماء إلا وقد آذنت شمس الأرض بالمغيب من أفقها الى الأفق الدائم :

وهاهو النبي مسجى بين أهله يلتدبون فيه حظهم ، والباب مغلق دون الناس .

ما أعظمه من يوم على الأمة !

فقدوا فيه أعظم نعمة عرفتها الانسانية !

فقدوا العظمة والكمال ::.

فقدوا المجد والعزة ::

فقدوا النفس الكبيرة ، والروح العالية ، فأعظم بيومه يوماً ! وأعظم به فقيداً . .

ولقـد أصبح مضرب المثل للمسلمين فيما بعد ، استشهدوا به كلما عظمت عليهم داهية ، أونزلت بهم مصيبة ، فقالوا : « اله كيوم مات فيه رسول الله » :

* * *

البيت يضج بالبكاء والعويل ، والباب مغلق على من فيه :

لقد فقدت الزهراء أباها العظيم ، والرزء به جلل ، والمصاب فيه فادح ..: فحق لها أن تبكي وتعول في البكاء ، وتئن وتطيل في الأنين !

ولكن فكرة أخرى كانت تراودها ، وأحداثاً مرعبة كانت تتجسد أمام ناظريها ، فتزيد في لوعتها وأنينها ، وتضيف غصة الى غصتها ، وهماً الى همها :

وذلك أن رسول الله صلى الله عليـه وآله حين حضرته الوفاة دعا بأهله وعياله وأوصاهم بوصاياه ، ثم جذب فاطمة (ع) تحت ردائه وأسرّ اليها بأشياء فأخذت تبكي ، ثم أسر اليها بشيء ففرحت . ولما سئلت عن ذلك ، قالت : أسر الي في الأول بالمصائب التي ستجري علينا ـ أهل البيت ـ بعد وفاته فتألمت كثيراً ، فلما رأى ذلك بشرني بأني سريعة اللحاق به :

رحماك اللهم !

ألست أنت الذي تغضب لغضب فاطمة ، وترضى لرضاها ؟

ويهون عليك أيتهـا الزهراء ، يابضعة النبي ، أنك سريعة اللحاق بوالدك العظيم :

سمع المسلمون الواعية من بيت رسول الله ، فهرعوا يجتمعون في المسجد والطرقات وقد أخذت المصيبة بمجامع قلوبهم ، ناكسين رؤوسهم ، قد شرد منهم اللب ، وطاش الفكر ... لا يعرفون مايفعلون فأصبحوا كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية .

وما عساهم يفعلون ، والألباء يجب أن تخرج اليهم من داخل الدار في حين أن علياً عليه السلام مشغول بتجهيز النبي .

وهل بعد هذا كله مايشكك في موت النبي؟!

بلى ، أبى عمر بن الخطاب على الناس تصديقهم بموت نبيهم ، فأخذ يصرخ في وجوه المسلمين ويهددهم ويتوعدهم : راح يهتف بهم :

« مامات رسول الله ولا يموت حتى يظهر دينه على الدين كله ، وليرجعن فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم ، ممن أرجف بموته : لا أسمع رجلا يقول : مات رسول الله إلا ضربته بسيفي » .

لقد كانت الدعوة صارمة ، وثائرة ... استعمل فيها الخطيب (عمر بن الخطاب) أقصى درجات الصرامة ، وأشد المغريات الخلابة للجماعات : فمن أمل بحياة الرسول وباظهار دينه على الدين كله ، الى توعيد بقطع رسول الله أيدي وأرجل المرجفين بموته ، وتهديد من عمر بقتل من يقول : مات رسول الله .

إنهما الخوف والأمل ، اذا اجتمعا مع هذا الرأي القاطع ، والارادة الصارمة كان لهما التأثير العظيم على أفكار الجماعة وتخدير أعصابها .

* * *

وبحكم حبّ المسلمين لنبيهم العظيم ، وعدم رضاهم بموته ، جاءت الدعوة شديدة التأثير في نفوسهم ، فلم يعترض أحد على عمر بن الخطاب قوله ، وساد الجميع اعتقاد بعدم موت النبي (ص) .

عاش المسلمون ساعات ملؤها الذهول والحيرة ، يمنعهم التصديق بموت النبي (ص) هذه الأمور التي أسلفنا ، الى أن حضر (أبو بكر) من السنح -- عالية من عوالي المدينة تبعد عنها بأربعة أميال أو ثلاثة - ولم يكد يسمع بالدعوى حتى يدخل الى بيت النبي ويكشف عن وجهه النير ليتحقق موته ، ثم يخرج الى الناس :

وبينا عمر مستمر في الحلف على أن رسول الله لم يمت ، طلب اليه أبو بكر أن يجلس ، فلم يجلس ، وكرر عليه ذلك ثلاث مرات ، فلم يستجب لأمره ، فقال :

- أيها الحالف على رسلك :

ولم تفد هذه المحاولات في رد عمر عما هو فيه ، فقام أبو بكر خطيباً في ناحية أخرى وقد اجتمع الناس حوله فقال :

- من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم » :

عندئذ اعتقد المسلمون بالحقيقة وجابهوا الواقع وجهاً لوجه . . وحتى عمر نفسه فقد صعق الى الأرض ، وصدّق بموت النبي بعد أن تحقق أن الآية من القرآن - كما يقول - :

* * *

ولا أتصور أن أبسط الأفراد ادراكاً يقنع بتفسير هذه الاحداث تفسيراً ساذجاً :

كلا !

ومن أين عرف أن النبي (ص) لا يموت حتى يظهر دينه على الدين كله ؟

وهل أخبره رسول الله بأنه سيخرج ويقطع أيدي وأرجل من قال بموته ؟ !

وما يدرينا ، لعلّ قيامه بتلك الدعوة الثائرة الصارمة ، كان بدافع من غياب أبي بكر عن المدينة ، وأنه لعلمـــه ذلك استطاع السيطرة على على الموقف ساعات كي لا تنصرف الخلافة الى علي عليه السلام - ما دام رسول الله حياً !!! - وما أن حضر أبو بكر من السنح حتى صدق بموت محمد : : : وعند ذاك أخذا يخططان للخلافة وتصييرها الى أبي بكر !!

بعد النبي

تتوالى الأحداث بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويحدثك التاريخ بالعجب العجاب : : .

يروي لك قصة (الردّة) التي شملت الغالبية العظمى من المسلمين حين راحوا يصرفون الخلافة عن صاحبها الشرعي ، الذي أكّد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله على خلافته وولايته شؤون المسلمين بعده : . : ذلك هو علي بن أبي طالب عليه السلام :

ويروي لك منازعة فاطمة في حقها من (فدك) :

ويقص عليك قيادة علي عليه السلام بهمامته الى الجامع ليبايع أبا بكر .

ويتحدث لك عن اضرام النار على دار فاطمة : . :

وينبئك بكل شيء من هـذا القبيل ، وأنت واجم ذاهـل اللب ، لا تدري أحلمٌ ما تسمعه أم حقيقة !

ألم يقـل رسول الله (ص) في علي : هذا وصيي وخليفتي فيكم ، وإن علياً مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي ؟!

ألم يرفعه على ذراعيه يوم الغدير ويقول : من كنت مولاه فهذا على مولاه ؟ !

ألم يسمعوا قوله (ص) في فاطمة : فاطمة بضعة مني ، من آذاها فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله .

ألم يقل فيها : إن الله يرضى لرضى فاطمة ، ويغضب لغضبها ؟ !

ألم تنزل فيهـا وولديهـا آيات وآيات . : . فمن آية التطهير ، الى

المباهلة ، الى آيات الأبرار ، الى آية المودّة في القربى ؟ !

أو يكون لهم حق الاجتهاد في مقابل هذه الكثرة الكاثرة من النصوص المتواترة : : :

• • •

تفيض روح محمد (ص) إلى بارئها ، فتشهد فاطمة عليها السلام السماء غير السماء ، والأرض غير الأرض ، والأناس غير الأناس . : :

ويحق لها بعد ذلك أن تعطف الى قبر والدها العظيم وتقول :

قد كان بعـدك أنباء وهنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ... واختل قومك فاشهدهم وقد نكبوا

وكل أهـل له قربى ومنزلة ... عنـد الإله على الأدنين مقترب

أبدت رجال لنا نجوى صدورهم ... لما قضيت وحالت دونك الترب

تجهمتنا رجال واستخف بنـا ... لما فقدت ، وكل الأرض مغتصب

وكنت نوراً ، وبدراً يستضاء به ... عليك تنزل من ذي العزة الكتب

وكان جبريل بالآيات يؤنسنـا ... فقد فقـدت وكل الخير محتجب

فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لما مضيت وحالت دونك الترب

لقد رزينـا بما لم يرز ذو شجن ... من البريـة لاعجم ولا عرب

ولعمري انها فترة جد قصيرة بين وفاة النبي وبضعته ، لاتتجاوز على أكثر التقادير التسعين يوماً . ولكنها كانت فترة ثقيلة على الزهراء جداً :

رفعت لواء المعارضة بادىء ذي بدء ، ونجحت بعض الشيء في مهمتها . : . ولكنها ذوت تدريجياً ، لأن المرأة ريحانة وليست قهرمانة . : .

ولم تكن معارضتها - إذ عارضت - عبثاً أو اندفاعاً وراء عاطفة . : : وإنما شهدت الحق يسحق بالأقدام ، فراحت تبذل كل جهدها لمناصرته واعلانه على الملأ .

في المعتزل

١ ـ وراء علي الى الجامع
٢ ـ اضرام للنار
٣ ـ فدك
٤ ـ بيت الأحزان

اضرام النار ! !

صورتان ترتسمان على لوحة كئيبة حزينة لم تقدر الأيدي المتطاولة أن تشوشها : -

صورة : أضرم فيها النار على دار فاطمة حتى يخرج علي عليه السلام للبيعة ، فيقال لمن أمر بالإحراق : في الدار فاطمة .

فيقول : وإن !

* * *

وصورة أخرى : يرسمها النظام (أستاذ الجاحظ) وينقلها الشهرستاني في (الملل والنحل) والصفدي في (الوافي بالوفيات) والسيد حامد حسين في (عبقات الأنوار) ، فيقول :

« نص النبي (ص) على أن الامام علي عليه السلام ، وعينه وعرفت الصحابة ذلك ، ولكن كتمه عمر لأجل أبي بكر وان فاطمة ضربت يوم البيعة حتى ألقت المحسن من بطنها » :

صورتان . . :

أجل صورتان كئيبتان ، أثبتهما هنا دون تعليق !

فدك . . .

(١) موقعها :

يقول الحموي في موقعها : « قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل : ثلاثة » (١) .

والظاهر أنها كانت قرية يسكنها اليهود ، وقد أبوا الانضواء تحت راية الاسلام في بادىء الامر ، ولكنهم عندما وجـدوا المسلمين احتلوا (خيبر) بقيادة القائد المظفر الامام علي بن أبي طالب عليه السلام ، رضخوا لحكم النبي صلى الله عليه وآله من دون قتال .

(٢) قيمتها المادية :

أ - مقتضى الرواية التي يذكرها الجوهري في (السقيفة وفدك) أنها كانت تقدر بـ (١٠٠ر٠٠٠ درهم) ، لأن الرواية تذكر أن عمر لما أجلى أهالي فدك الى الشام بعث اليهم من يقوّم الأموال فقوّموا أرض فدك ونخلها ، فأخذها عمر ، ودفع اليهم قيمة النصف الذي لهم ، وكان مبلغ ذلك خمسين ألف درهم أعطاهم إياها من مال أتاه من العراق .

ب - ويقول الحموي عنها : « وفيها عين فوارة ونخيل كثيرة » (٢) .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٤ / ٢٣٨ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٤ / ٢٣٨ .

ج - يعبّر عنها الحموي بقرية ، كما وجدنا في التعريف (١) :

د - يقدر ابن أبي الحديد المعتزلي بعض نخيلها بنخيل الكوفة في القرن السادس الهجري (٢) .

هـ - تقسيم معاوية فدكاً أثلاثاً ، وإعطاؤه لكل من يزيد ، ومروان وعمرو بن عثمان ثلثاً ، يدل على أنها كانت ثروة ضخمة ، اذ كانت تصلح لأن توزّع على أمراء ثلاثة من أصحاب الثراء العريض (٣) :

و - إن عمر منع أبا بكر من ترك فدك للزهراء لضعف المالية العامة مع احتياجها للتقوية لما يتهدد الموقف من حروب الردة وثورات العصاة : ومن الجليّ أن أرضاً يُستعان بحاصلاتها على تعديل ميزانية الدولة وتقوية مالياتها في ظروف حرجة كظرف الثورات والحروب الداخلية لابد أنها ذات نتاج عظيم (٤) :

يستخلص مما تقدم أن القيمة المادية لفدك لم تكن ضئيلة ، وإنما كانت تدر وارداً كبيراً على صاحبها :

(٣) كيف انتقلت الى النبي (ص) :

لما كان الرعب الذي وقع في قلوب أهالي (فدك) من سقوط (خيبر) بيد المسلمين هو الذي أدى الى خضوعهم للحكم الاسلامي ، ولم يحصل ذلك بحرب أو غزوة ، فان الحكم في مثل ذلك أن تكون ملكاً صرفاً للنبي صلى الله عليه وآله ، كما هو صريح قوله تعالى : « ما أفاء الله

---

(١) نفس المصدر السابق :

(٢) و (٣) و (٤) محمد باقر الصدر : فدك في التاريخ ص ٢٥ - ٢٦ المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف :

على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير » (١) :

وهذا مالا مجال لنقاش فيه : : .

إنما الاختلاف يظهر في أمر آخر هو مقدار ماتنازل به أهالي (فدك) للنبي :

أ ـ فمقتضى رواية محمد بن إسحاق عن الزهري أنهم صالحوا النبي على النصف من فدك (٢)

ب ـ ويذكر أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري أن النبي صالحهم عليها كلها (٣)

ويؤيد محمد بن اسحاق في روايته ، مالك بن أنس محدثاً عن عبدالله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم : ولكن يظهر هنا اختلاف آخر ، فيروي مالك بن أنس أن عمر لما أجلاهم الى الشام عوضهم عن النصف الذي لهم بمقدار من إبل وغيرها بينما يروي غيره أنه عوضهم عن نصفهم بمبلغ (٥٠,٠٠٠ درهم) .

ومهما يكن من أمر الاختلاف الذي غالباً مايحصل في أمثال هذه المسائل ، فان الراجح أن النبي صلى الله عليه وآله صالح أهالي فدك على النصف من نخيلها وأرضها واشترى عمر النصف الآخر من بيت المال عند توليه الخلافة :

---

(١) سورة الحشر : ٦ :

(٢) أبو بكر الجوهري : السقيفة وفدك ، نقلا عن شرح نهج البلاغة ج ١٦ / ٢١٠ :

(٣) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١٦ / ٢١٠ ، دار احياء الكتب ١٩٦٢ م :

لقد رأينا أن اختلاف الرواة ينصب على مقدار ماتنازل به أهالي (فدك) للنبي صلى الله عليه وآله ، أما أن فدك كانت للنبي بمقتضى الآية الشريفة فذلك مالم ينكره أحد .

(٤) انتقالها الى فاطمة :

وإذا انتهينا من كون فدك خالصة للنبي صلى الله عليه وآله ، وعدم كونها للمسلمين حتى تخضع لاجتهاد أحد من الصحابة – كائناً من كان – ساغ لنا أن نسأل : وما فعل بها النبي ؟ !

الصحيح أنه نحلها الى فاطمة عليها السلام قبل وفاته ، أي أنه وهبها لها فصارت ملكاً للزهراء بلا منازع .

وإذا كنا نؤمن بأن النبي صلى الله عليه وآله معصوم و (لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) (١) . . وإذا عرفنا أن الفقهاء يجمعون على أن (الناس مسلطون على أموالهم) فلا مجال لأن يعترض أحد على سبب منح النبي فدكاً الى ابنته الصديقة الطاهرة .

أما كيف قلنا بأن فدكاً كانت نحلة من النبي الى فاطمة فسندنا في ذلك أمور :

الأول : قول الزهراء عليها السلام للامام أمير المؤمنين : « هذا ابن أبي قحافة يبتزني نحلة أبي » (٢) .

الثاني : قول الزهراء عليها السلام لأبي بكر : « إن فدك وهبها لي

---

(١) سورة النجم / ٣ .

(٢) أحمد بن علي الطبرسي : الاحتجاج ج ١ / ١٤٥ . مطبعة النعمان ، النجف الأشرف – ١٣٨٦ هـ .

رسول الله صلى الله عليه وآله » (١) وعصمتها تمنع من أن تكذب ، وأن تطلب ما ليس لها :

الثالث : لقد ثبت في محلّه أن علياً عليه السلام معصوم : وعصمته تمنع من أن يمكن زوجته من أن تطلب ما ليس لها .

الرابع : قول الامام أمير المؤمنين عليه السلام في رسالته الى عثمان بن حنيف : « بلى ! كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء ، فشحّت عليها نفوس قوم ، وسخت عنها نفوس قوم آخرين » (٢) ولو كانت داخلة في تركة النبي (ص) لم يصح له التعبير بأنها كانت في أيدي أهل البيت ، نظراً لتعلق حقوق زوجات النبي بذلك :

الخامس : شهادة الامام أمير المؤمنين عليه السلام ، وأم أيمن بأن رسول الله (ص) وهبها لفاطمة عندما طلب أبو بكر من الزهراء أن تأتي بشاهد على ما تقول :

(٥) منع أبي بكر فاطمة فدكاً :

بعد أن فاضت روح النبي صلى الله عليه وآله الى الرفيق الأعلى ، نشبت خلافات عظيمة بين المهاجرين والأنصار حول الخلافة ، وبدأ الأنصار ذلك الخلاف بأن اجتمعوا في (سقيفة بني ساعدة) لترشيح سعد بن عبادة للخلافة ، وعلم المهاجرون بذلك : . وهالهم الأمر . فتدخل عمر بن الخطاب وأبو بكر ، وأبو عبيدة الجراح في النزاع كممثلين عن المهاجرين : : وبعد مناوشات ومفاوضات وخطب وتهديدات من الطرفين ، تنازل الأنصار عما

---

(١) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١٦ / ٢١٦ :

(٢) محمد عبده : شرح نهج البلاغة ج ٣/٧٩ ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة :

كانوا يهدفون اليه فوافقوا على أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير، فأجابهم عمر بأنه لا يلتقي قرنان في رأس واحد ، وطلب أن يكونوا هم الأمراء ، والأنصار الوزراء . . . وأخيراً غلب هؤلاء أولئك على أمرهم ، وتمت البيعة لأبي بكر .

كل هذا والنبي صلى الله عليه وآله مسجّىً في داره ، وعلي عليه السلام مشغول بتجهيزه وتكفينه والصلاة عليه . . .

ويخرج الامام أمير المؤمنين بعد ثلاثة أيام ، ليرى أن المؤامرة قد أحبكت خيوطها ، ودُبّرت على أتم ما يكون لنزع الخلافة عنه ، وإيكالها إلى غيره .

ويتسلم أبو بكر زمام الأمر ، ويبدأ حركاته الاصلاحية ، وفي مقدمة قائمة المشاريع التي كان يجب عليه تنفيذها ، منازعة فاطمة عليها السلام في أمر فدك ، وإرجاعها الى بيت مال المسلمين .

أما مبرراته في ذلك فهي :

١ – إن ذلك لم يكن للنبي صلى الله عليه وآله ، بل كان للمسلمين .

٢ – وعلى فرض أن فدكاً كانت للنبي صلى الله عليه وآله ، فانه سمع النبي يقول : « نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث » .

٣ – رواية أبي هريرة عن النبي : « لا يقسم ورثتي ديناراً ولا درهماً ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤونة عيالي فهو صدقة » .

هذه هي المبررات التي تذكر لقيام أبي بكر بانتزاع فدك من فاطمة عليها السلام . وإذا ما عرضناها على طاولة المناقشة ، بموضوعية وأمانة تامتين ، متخلّين عن الرواسب الموجودة في أفكارنا تجاه القضية ، ومحاولين التهرب من اضفاء هالة التقديس على المسلمين الأولين – الأمر الذي وقع فيه أكثر الباحثين فغشّت عيونهم عن إبصار نور الحق – نجد ما يلي :

١ – إن أبا بكر يدعى أن فدكاً لم تكن للنبي صلى الله عليه وآله بل كانت للمسلمين .

لقد وجدنا أن المؤرخين يجمعون على أن فدكاً كانت خالصة للنبي صلى الله عليه وآله . هذا مضافاً الى أن الآية الكريمة صريحة في ذلك : ومعه يكون كلام أبي بكر اجتهاداً في مقابل النص ، وهو باطل بلاريب .

٢ – أما أنه سمع النبي (ص) يقول : « نحن معاشر الانبياء لانورث ماتركناه صدقة » فيمكن أن يناقش بوجوه : –

أ – إنه خارج عن محل الكلام ، لأننا أثبتنا أن فدكاً كانت نحلة ، وهبها رسول الله (ص) لفاطمة (ع) وإذا كانت ملكاً لفاطمة فلا تكون إرثاً من النبي لها ليقال أن الانبياء لايورثون .

ب – إن الراوي لها منحصر بأبي بكر ، فلم يروها أحد غيره : وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد المعتزلي : « المشهور أنه لم يرو حديث انتفاء الارث إلا أبو بكر وحده » (١) و ا أن القرآن الكريم أثبت الارث لعموم الناس ، وجاء التصريح به في خصوص بعض الأنبياء ، فان هذا الخبر – وهو خبر واحد – لايصلح لتخصيص الكتاب العزيز .

ج – على أن التدقيق في الدوافع الحقيقية لمنع فدك من فاطمة يكشف لنا عن أن المسألة لم تكن على هـذا المستوى من البساطة ، وإنما كانت هناك عوامل سياسية تلعب دورها في هـذا الصدد . وإلا فما الذي يمنـع الخليفة او المسلمين قاطبة من أن يتنازلوا عن حقهم في فدك إرضاء لبنت نبيهم ، وقد سمعوا أباها يقول : « فاطمة بضعة مني ، من أحبها فقـد أحبني ، ومن أغضبها فقد أغضبني » ؟!

٣ – وأما رواية أبي هريرة فيكفينا اشتهاره بالوضع في الأحاديث ،

---

(١) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ، ج ١٦ / ٢٢١ .

حتى أنه صرح نفسه بذلك . وقد أغنانا الاستاذ المحقق الشيخ محمود أبورية في كتابه (شيخ المضيرة : أبو هريرة الدوسي) من تجشم عناء البرهنة على كذب أبي هريرة وتزويره :

هذا مضافاً الى أن ابن الحديد يستغرب من هذه الرواية قائلا : « وهذا حديث غريب ، لأن المشهور أنه لم يرو حديث انتفاء الارث إلا أبو بكر وحده » (١)

(٦) **دوافع منع فاطمة عن فدك** : -

الواقع أن التاريخ الاسلامي يحتاج الى غربلة عنيفة ، فقد كتب طبقاً لأهواء الحكام - شأنه في ذلك شأن التاريخ عند بقية الامم - وهذه غلطة فظيعة ارتكبها المؤرخون المسلمون حين راحوا يسجلون الاحداث من زاوية الحكام لامن زاوية المحكومين .

ان البحث التاريخي الحـر يفرض على صاحبه كثـيراً من التجرد والموضوعية : إن وظيفة المؤرخ لاتعدو وظيفة عدسة للتصوير يرسلها الجيل الحاضر الى الأجيال السابقة لتعود عليه بصور ملتقطة من هنا وهناك محتفظة بألوانها الأصلية من دون أن تلعب فيها العدسة أو تغير شيئاً :

ولكن عكس ذلك هو الذي حدث : ولسنا الآن بصدد البرهنة على ذلك من نماذج تاريخية معينة ، وإنما نريد أن نخلص من هذه المقدمة إلى أن التجرد والموضوعية ضرورة حتمية في البحث التاريخي :

نأتي الى قضية معينة فنحاول أن نكتشف الأسباب الخفية التي أدت الى وقوعها ، والعوامل اللاشعورية التي دفعت بأشخاص الرواية للظهور على

(١) المصدر السابق :

خشبة المسرح في الدور الذي ظهروا فيه : واذا استطعنا ذلك كنا قد أدينا مهمتنا بنجاح :

(٧) اعلان المعارضة :

ومن صميم ما يتصل بحديثنا عن فدك أن نذكر خطبة الزهراء (ع) في ذلك : : :

فقد روى عبد الله بن الحسن باسناده عن آبائه عليهم السلام ، انه لما أجمع أبو بكر وعمر على منع فاطمة (ع) فدكا وبلغها ذلك ، لاثت خمارها على رأسها ، واشتملت بجلبابها ، وأقبلت في لمّة من حفدتها ونساء قومها ، تطأ ذيولها ، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله (ص) حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، فنيطت دونها ملاءة ، فجلست ثم أنّت أنّة أجهش القوم لها بالبكاء : : : فارتجّ المجلس ، ثم أمهلت هنيئة حتى اذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ، فعاد القوم في بكائهم ، فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت :

الحمد لله على ما أنعم ، وله الشكر على ما ألهم ، والثناء بما قدم ، من عموم نعمٍ ابتداها ، وسبوغ آلاءٍ أسداها ، وتمام منٍن أولاها ، جمّ عن الاحصاء عددها ، ونأى عن الجزاء أمدها ، وتفاوت عن الأدراك أمدها ، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها ، واستحمد الى الخلائق باجزالها وثنى بالندب على أمثالها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلمة جعل الاخلاص تأويلها ، وضمن القلوب موصولها ، وأنار في التفكير معقولها ، الممتنع من الأبصار رؤيته ، ومن الألسن صفته ، ومن الأوهام

كيفيته : ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها ، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها : كونها بقدرته ، وذرأها بمشيته ، من غير حاجة منه الى تكوينها ولا فائدة له في تصويرها ، إلا تثبيتاً لحكمته ، وتلبيهاً على طاعته ، وإظهاراً لقدرته ، تعبداً لبريته ، واعزازاً لدعوته : ثم جعل الثواب على طاعته ، ووضع العقاب على معصيته ، زيادة لعبادته من نقمته وحياشة لهم الى جنته :

وأشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله ، اختاره قبل أن أرسله ، وسماه قبل أن اجتباه ، واصطفاه قبل أن ابتعثه ، إذ الخلائق بالغيب مكنونة وبستر الأهاويل مصونة ، وبنهاية العدم مقرونة ، علماً من الله تعالى بما يلي الأمور ، وإحاطة بحوادث الدهور ، ومعرفة بمواقع الأمور .

ابتعثه الله إتماماً لأمره ، وعزيمة على إمضاء حكمه ، وانفاذاً لمقادير حتمه ، فرأى الأمم فرقاً في أديانها ، عكفاً على نيرانها ، عابدة لأوثانها منكرة لله مع عرفانها ، فأنار الله بأبي محمد صلى الله عليه وآله ظلمها ، وكشف عن القلوب بُهمها ، وجلّى عن الأبصار غممها ، وقام في الناس بالهداية ، فأنقذهم من الغواية ، وبصرهم من العماية ، وهداهم الى الدين القويم ، ودعاهم الى الطريق المستقيم .

ثم قبضه الله اليه قبض رأفة واختيار ، ورغبة وإيثار فمحمد (ص) من تعب هذه الدار في راحة ، قد حفّ بالملائكة الأبرار ، ورضوان الرب الغفار ، ومجاورة الملك الجبّار صلى الله على أبي ، نبيه وأمينه ، وخيرته من الخلق وصفيه ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

ثم التفتت الى أهل المجلس ، وقالت :

أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه ، وحملة دينه ووحيه ، وأمناء الله على أنفسكم ، وبلغائه الى الأمم ، زعيم حق له فيكم ، وعهد قدمه اليكم وبقية استخلفها عليكم : كتاب الله الناطق ، والقرآن الصادق ، والنور

الساطع ، والضياء اللامع ، بينة بصائره ، منكشفة سرائره ، منجلية ظواهره مغتبطة به أشياعه ، قائد إلى الرضوان أتباعه ، مؤد إلى النجاة استماعه : به تنال حجج الله المنورة ، وعزائمه المفسرة ، ومحارمه المحذرة ، وبيناته الجالية ، وبراهينه الكافية ، وفضائله المندوبة ، ورخصه الموهوبة ، وشرائعه المكتوبة ، فجعل الله الايمان تطهيراً لكم من الشرك ، والصلاة : تنزيهاً لكم عن الكبر ، والزكاة : تزكية للنفس ونماء في الرزق ، والصيام : تثبيتاً للاخلاص ، والحج : تشييداً للدين ، والعدل : تنسيقاً للقلوب ، وطاعتنا : نظاماً للملة ، وامامتنا : أماناً للفرقة ، والجهاد : عزاً للاسلام ، والصبر : معونة على استيجاب الأجر ، والأمر بالمعروف : مصلحة للعامة ، وبر الوالدين : وقاية من السخط ، وصلة الأرحام : منساة في العمر ومنماه للعدد ، والقصاص : حقناً للدماء ، والوفاء بالنذر : تعريضاً للمغفرة ، وتوفية المكاييل والموازين : تغييراً للبخس ، والنهي عن شرب الخمر : تنزيهاً عن الرجس ، واجتناب القذف : حجاباً عن اللعنة ، وترك السرقة : ايجاباً بالعفة ، وحرم الله الشرك اخلاصاً له بالربوبية ، فاتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ، فانه إنما يخشى الله من عباده العلماء ،

ثم قالت :

أيها الناس ، اعلموا اني فاطمة ، وأبي محمد (ص) أقول عوداً وبدواً ولا أقول ما أقول غلطاً ، ولا أفعل ماأفعل شططاً . لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فان تعزوه وتعرفوه ، تجدوه أبي دون نسائكم ، وأخا ابن عمي دون رجالكم ، ولنعم المعزى اليه صلى الله عليه وآله وسلم :

فبلغ الرسالة ، صادعاً بالنذارة ، مائلا عن مدرجة المشركين ، ضارباً

ثبجهم ، آخذاً بأكظامهم ، داعياً الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، يجف الأصنام ، وينكث الهام ، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر ، حتى تفرى الليل عن صبحه ، وأسفر الحق عن محضه ، ونطق زعم الدين ، وخرست شقاشق الشياطين ، وطاح وشيظ النفاق ، وانحلت عقد الكفر والشقاق ، وفهتم بكلمة الاخلاص في نفر من البياض الخماص ، وكنتم على شفا حفرة من النار ، مذقة الشارب ، ونهزة الطامع ، وقبسة العجلان وموطىء الأقدام ، تشربون الطرق ، وتقتاتون القـد ، أذلة خاسئين ، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم ، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد صلى الله عليه وآله ، بعد اللتيا والتي ، وبعد أن مني ببهم الرجال وذؤبان العرب ، ومردة أهل الكتاب ، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، أو نجم قرن الشيطان ، أو فغرت فاغرة من المشركين ، قذف أخاه في لهواتها ، فلا ينكفىء حتى يطأ جناحها بأخمصه ، ويخمد لهبها بسيفه ، مكدوداً في ذات الله ، مجتهداً في أمر الله ، قريباً من رسول الله ، سبداً في أولياء الله ، مشمراً ناصحاً مجدًّا كادحاً ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وأنتم على رفاهية من العيش وادعون فاكهون آمنون ، تتربصون بنا الدوائر ، وتتوكفون الأخبار ، وتنكصون عند النزال ، وتفرّون من القتال .

فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه ، ومأوى أصفيائه ، ظهر فيكم حسكة النفاق ، وسمل جلباب الدين ، ونطق كاظم الغاوين ، ونبغ خامل الأقلين ، وهدر فنيق المبطلين ، فخطر في عرصاتكم ، واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم ، فألفاكم لدعوته مستجيبين ، وللعزة فيه ملاحظين ، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً ، وأحشمكم فألفاكم غضاباً فوسمتم غير إبلكم ، ووردتم غير مشربكم : : : هذا والعهد قريب ، والكلم رحيب ، والجرح لمّا يندمل ، والرسول لمّا يُقبر إبتداراً زعمتم خوف الفتنة ، ألا في الفتنة

سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين .

فهيهات فيكم ، وكيف بكم ؟ وأنى تؤفكون وكتاب الله بين أظهركم ، اموره ظاهرة ، وأحكامه زاهرة ، وأعلامه باهرة ، وزواجره لائحة ، وأوامره واضحة ، وقد خلفتموه وراء ظهوركم ، أرغبة عنه تريدون ؟ أم بغيره تحكمون ؟ بئس للظالمين بدلاً ، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين .

ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها ، ويسلس قيادها ، ثم أخذتم تورون وقدتها ، وتهيجون جمرتها ، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي ، وإطفاء أنوار الدين الجلي ، واهمال سنن النبي الصفي ، تشربون حسواً في ارتغاء ، وتمشون لأهله وولده في الخمرة والضراء ، ويصير منكم على حزّ المدى ، ووخز السنان في الحشا ، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا ، أفحكم الجاهلية تبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ ! أفلا تعلمون ؟ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته .

أيها المسلمون !

أأغلب على إرثي ؟ !

يابن أبي قحافة ، أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شيئاً فرّياً .

أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم ؟ إذ يقول : « وورث سليمان داود » وقال فيما اقتضى من خبر يحيى بن زكريا إذ قال : « فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب » وقال : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » وقال : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين » وقال : « إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » وزعمتم : أن لا حظوة لي ولا إرث

من أبي ، ولا رحم بيننا ، أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها ؟ أم تقولون: إن أهل ملتين لا يتوارثان ؟ أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة ؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي ؟

فدونكها مخطومة مرحولة ، تلقاك يوم حشرك : فنعم الحكم الله ، والزعيم محمد ، والموعد القيامة ، وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولا ينفعكم إذ تندمون ، ولكل نبأ مستقر : . . وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب عظيم :

ثم رمت بطرفها نحو الأنصار ، فقالت :

يا معشر النقيبة وأعضاد الملة ، وحضنة الاسلام ! ما هذه الغميزة في حقي ، والسِّنة عن ظلامتي ؟ أما كان رسول الله (ص) أبي يقول : « المرءُ يُحفظ في ولده » ؟!

سرعان ما أحدثتم ، وعجلان ذا إهالة ، ولكم طاقة بما أحاول وقوة على ما أطلب وأزاول :

أتقولون : مات محمد (ص) ؟ فخطبٌ جليلٌ استوسع وهنه ، واستنهر فتقه ، وانفتق رتقه ، واظلمت الأرض لغيبته ، وكسفت الشمس والقمر ، وانتثرت النجوم لمصيبته ، وأكدت الآمال ، وخشعت الجبال ، واضيع الحريم ، وأزيلت الحرمة عند مماته : فتلك والله النازلة الكبرى ، والمصيبة العظمى ، لا مثلها نازلة ، ولا بائقة عاجلة ، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه ، في أفنيتكم ، وفي مُمساكم ومصبحكم ، يهتف في أفنيتكم هتافاً وصراخاً وتلاوة وألحاناً ، ولقبله ما حلّ بأنبياء الله ورسله ، حكم فصل ، وقضاء حتم : : :

« وما محمد الا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي

الله الشاكرين » :

أيها بني قيلة !

أ أهضم تراث أبي وأنتم بمرأى مني ومسمع ، ومنتدى ومجمع ؟ ! تلبسكم الدعوة ، وتشملكم الخبرة ، وأنتم ذوو العدد والعدّة ، والأداة والقوة ، وعندكم السلاح والجُنّة ، توافيكم الدعوة فلا تجيبون ، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون ، وأنتم موصوفون بالكفاح ، معروفون بالخير والصلاح ، والنخبة التي انتخبت ، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت . قتلتم العرب ، وتحملتم الكدّ والتعب ، وناطحتم الأمم ، وكافحتم البهم ، لا نبرح أو تبرحون ، نأمركم فتأتمرون ، حتى إذا دارت بنا رحى الاسلام ، ودرّ حلب الأيام ، وخضعت ثغرة الشرك ، وسكنت فورة الإفك ، وخمدت نيران الكفر ، وهدأت دعوة الهرج ، واستوسق نظام الدين ، فأنى حزتم بعد البيان ؟ وأسررتم بعد الاعلان ؟ ونكصتم بعد الاقدام ؟ وأشركتم بعد الإيمان ؟ بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وهمّوا باخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة ، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين .

ألا وقد أرى أن قد أخلدتم الى الخفض ، وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض ، وخلوتم بالدعة ، ونجوتم بالضيق من السعة ، فمججتم ما دعيتم ووسعتم الذي تسوغتم ، فان تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً ، فان الله لغني حميد :

ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة مني بالجذلة التي خامرتكم ، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم ، ولكنها فيضة النفس ، ونفثة الغيظ وخور القناة ، وثبة الصدر ، وتقدمة الحجة ، فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر ، نقبة الخف ، باقية العار ، موسومة بغضب الجبار ، وشنار الأبد ، موصولة

بنار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ، فبعين الله ما تفعلون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شهيد فاعملوا انا عاملون ، وانتظروا انا منتظرون » (١) .

• • •

هذا هو إعلان المعارضة بتمامه ، نقلته هنا على طوله ، لأن كثيراً من الباحثين نقلوا نتفاً منه ، وأسقطوا مواضع جديرة بالاثبات .

ومن خـــلاله يتبين أن المسألة ـ كما أسلفنا ـ لم تكن مسألة فدك ، وإنما كانت ترمي الى أوسع من ذلك المجال الضيق الذي شاء بعض الكتّاب أن يزجها فيه . . . إنها مسألة الخلافة التي تمس الدستور الاسلامي بالصميم وتشغل أبرز المواقع من المسألة الاسلامية المُعاشة آنذاك .

(٨) وبعد ذلك :

يظهر من بعض الروايات أن الصديقة الزهراء نجحت بعض الشيء في استنكارها وإعلانها المعارضة ، فألجأت الخليفة الى أن يسلّمها فدكاً ، وكاد الأمر يتم لولا أن دخل عمر ، وقال له : ما هذا ؟

فقال : كتاب كتبته لفاطمة بميراثها من أبيها .

فقال : بماذا تنفق على المسلمين وقد حاربتك العرب كما ترى ؟ !

ثم أخذ الكتاب فشقّه (٢) .

وهكذا نفهم أن (فدكاً) أصبحت من مصادر المالية العامة للمسلمين على عهد أبي بكر . أما بعد ذلك فيمكننا تتبع سلسلتها التاريخية بالصورة التالية :

---

(١) أحمد بن علي الطبرسي : الاحتجاج ، ج ١ / ١٣٣ ـ ١٤١ ، مطبعة النعمان النجف الاشرف ـ ١٣٨٦ هجـ .

(٢) السيرة الحلبية ج ٣ / ٣٩١ .

في عهد عمر : دفع فدكاً الى ورثة رسول الله (ص) .

في عهد عثمان: أقطعها مروان بن الحكم .

في عهد أمير المؤمنين علي : انتزعها من مروان تبعاً لسياسته التي تبناها في ردّ قطائع عثمان الى أصحابها . والرأي الراجح أنه كان ينفق غلاتها في مصالح المسلمين برضى منه ومن أولاده عليهم الصلاة والسلام (١) .

في عهد معاوية : أقطع مروان بن الحكم ثلثها ، وعمر بن عثمان ثلثها ويزيد - ابنه - ثلثها الآخر .

في عهد مروان بن الحكم : خلصت كلها له ثم وهبها لابنه عبد العزيز

في عهد عبد العزيز : كانت بيده .

في عهد عمر بن عبد العزيز : ورثها هو واخوته ، فاشترى حصصهم منها ، فلما خلصت له ردّها على وُلد فاطمة .

في عهد يزيد بن عبد الملك : انتزعها من أولاد فاطمة فصارت في أيدي بني مروان حتى انقرضت الخلافة الأموية .

في عهد أبي العباس السفاح : ردّها على عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب (ع) .

في عهد المنصور : قبضها من بني الحسن .

في عهد المهدي : ردّها على الفاطميين .

في عهد موسى الهادي : قبضها من أيديهم ، وبقيت في أيدي العباسيين حتى خلافة المأمون .

في عهد المأمون : ردّها على الفاطميين سنة (٢١٠) . وبهذه المناسبة أنشأ دعبل الخزاعي قصيدته المشهورة التي مطلعها :

---

(١) محمد باقر الصدر : فدك في التاريخ ص ٢١ ، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف - ١٣٧٤ هجـ .

أصبح وجه الزمان قد ضحكا بردّ مأمون هاشم فدكا

في عهد المتوكل : انتزعها من الفاطميين وأقطعها عبد الله بن عمر البازيار وكان من ضمنها إحدى عشرة نخلة غرسها رسول الله (ص) بيده الكريمة فوجّه عبد الله بن عمر البازيار رجلا يقال له : بشران بن أبي أمية الثقفي الى المدينة فصرم تلك النخيل ، ثم عاد فأفلج .

وعند هذا الحد ينتهي تاريخ فدك : : :

بيت الاحزان

حين تخفق المعارضة السياسية تتحول الى مظاهرة صامتة ، وهذه الاخيرة قد تكون أبلغ تأثيراً من الاولى ، لأن فيها بالاضافة الى النكاية والاستنكار حفاظاً على الاستقرار والهدوء .

كذلك فعلت الزهراء عليها السلام حين رأت كل الذي رأت ، فلم يكن منها - وقد نحل جسمها ، وانهد ركنها ، واظلمت الدنيا في عينيها - إلا أن تلجأ الى بيت في البقيع عند قبور الشهداء تبكي أباها ، وتشكو له ماجرى عليها بعده .

كانت تذهب الى قبر والدها العظيم أحياناً ، وتتناول قبضة من تربته وتشمها ثم تجهش بالبكاء وتقول :

ماذا على من شم تربة أحمد ... أن لايشم مدى الزمان غواليا
صبت علي مصائب لو أنها ... صبت على الأيام صرن لياليا

• • •

وخرجت مرة الى قبر أبيها ، وهي تعثر في أذيالها ، ولا تبصر شيئاً من عبرتها ، حتى دنت من القبر الشريف ، فأغمى عليها ... فتبادرت النساء اليها ونضحن الماء عليها حتى أفاقت فأخذت تقول : أبتاه ، رفعت قوتي وخانني جلدي ، وشمت بي عدوى ، والكمد قاتلي :

أبتاه !

منبرك بعـــدك موحش ، ومحرابك خال من مناجاتك ، وقبرك فرح بمواراتك ، فوا أسفاه عليك إلى أن أقدم عليك :

يقول المحدث : ـ

ثم زفرت ، وأنت أنة كادت روحها أن تخرج :

• • •

ثم رجعت الى منزلها وأخذت بالبكاء والعويل ليلها ونهارها ، وهي لاترقأ لها دمعة ، ولا تهدأ لها زفرة ، فاجتمع شيوخ أهل المدينة ، وأقبلوا الى الامام أمير المؤمنين عليه السلام ، وقالوا : ـ

يا أبا الحسن ، ان فاطمة تبكي الليل والنهار ، فلا أحد منا يهنأ بالنوم في الليل ، وإنا نطلب منك أن تسألها إما أن تبكي ليلا أو نهاراً :

فقال عليه السلام : حباً وكرامة :

أقبل الامام الى الزهراء عليها السلام وهي مجهشة بالبكاء ، فلما رأته سكنت هنيئة ، فقال لها :

يابنت رسول الله ، ان شيوخ المدينة يسألون أن أسألك إما أن تبكين أباك ليلا وإما نهاراً :

فقالت : يا أبا الحسن ، ما أقل مكوثي بينهم ، وما أقرب مغيبي من بين أظهرهم ، فو الله لا أسكت ليلا ولا نهاراً ، أو ألحق بأبي رسول الله :

وإذ رأى الامام عليه السلام ذلك بنى لها بيتاً في البقيع ، سمي : (بيت الاحزان) : فكانت إذا أصبحت قدمت الحسنين أمامها وخرجت الى البقيع باكية ، فلا تزال بين القبور باكية حتى يقبل الليل فيذهب الامام عليه السلام خلفها ويأتي بها الى المنزل :

• • •

واشتاقت ذات مرة سماع صوت مؤذن أبيها ـ بلال ـ فبلغ ذلك بلالا وكان قد امتنع من الأذان بعد النبي (ص) فأخذ في الأذان :.

وما ان جلجل الصوت الجهوري بكلمة : الله اكبر ، حتى ذكرت فاطمة نداء بلال على عهد أبيها العظيم فلم تمالك من البكاء :

وما ان بلغ قوله : أشهد أن محمداً رسول الله (ص) ، حتى شهقت شهقة وسقطت بوجهها ، فأغمي عليها ...

وقال الناس لبلال : أمسك يابلال ، فقد فارقت ابنة رسول الله الدنيا فقطع بلال أذانه ولم يتمه :

ولما أفاقت فاطمة (ع) سألته أن يتم من حيث قطع ... فأبى واعتذر فأعفته عن ذلك .

• • •

ولئن سكت فم المعارضة عن إعلان مايجيش في ضمير فاطمة ، فقد نطق فيها لسان الدموع !

ولسان الدموع أفرح للقلب ، وأدمى للعين ...

إغفاءة

١ – الغصن الذاوي
٢ – على فراش الموت
٣ – تشييع هادىء

الغصن الذاوي

إنه عمر قصير ، قصر عمر الزهور الفواحة ...

عمر قضته الزهراء وأوشكت على نهايته ، ولم يتفتح - بعدُ - إلا النزر اليسير من أكمامها !!

ان المآسي المتتالية والصدمات العنيفة التي واجهت الزهراء ، وهي لاتزال في مقتبل شبابها ، تركتها مهيضة الجناح ، طريحة الفراش ، تشكو ألماً من ضلعها المكسور ، وتتذكر ماجرى عليها وعلى زوجها الوفي الذي يمثل الركن الهادىء الذي تأوي اليه كلما عرض لها مايقلقها .

تتذكر اغتصابهم حقها :

وتتذكر تنحية زوجها عن منصبه الذي هو به أحق :

وتتذكر قيادتهم إياه بعمامته الى الجامع وهي تندب خلفه ...

تتذكر كل ذلك فتنعكس أمام عينيها الغائرتين صورة مظلمة حالكة فتتحسر آهة من أعماق قلبها الذي صار يشتاق لقاء والدها العظيم ، وقد بشرها بأنها سريعة اللحاق به :

ياللجفاء ...

إنها بضعة النبي (ص) ، وبنته المفضلة ، التي أكد على رعاية حقها مراراً :

والمرء يُحفظ في ولده !!

ولكن هذا كله لم يكن بالذي يمنع المتطاولين من أن يتطاولوا عليها ويردع الأيدي الآثمة من أن تمتد فتخنق هذه الزهرة الفواحة ولما يمض على

تفتحها زمن طويل !!

وهكذا ذوى الغصن الذي خلفه النبي في أمته ، وتناثرت زهوره ، وذبلت أعواده ، وبدت شاحبة باهتة :

لك الله يا أم الحسن

وستفيدين على رب كريم ، وأب عظيم ، وستشكين له ماجرى عليك بعده في مدة قصيرة جداً لاتتجاوز على اكثر التقادير التسعين يوماً !

ولتكن هذه لقطة سوداء فاحمة في سجل أمة محمد ، تنبىء الأجيال عما كان ... كلما امتدت الأيدي تتصفح ماسطر في ذلك السجل :

على فراش الموت

لساعة الفراق الدائم لوعة في نفوس الأحبة يعرفها كل من لامس هذه التجربة :

إنها آخر فرصة للقاء يتزود الحبيب بحبيبه ، ثم يكون القضاء المحتم ، وفي مثل هـذه الساعة يكون الانسان أحوج ما يكون الى الاستقرار والهدوء ، في حين أن الكثيرين يجزعون ويعتقلقون : : .

* * *

أما الزهراء عليها السلام فانها وادعة مستقرة ، توصي الامام (ع) بوصاياها ، فتطلب منه أن يدفنها ليلا ، ولا يعلم أحداً بذلك ، كما رجته أن لا يسمح لمن آذاها وأسخطها بالصلاة عليها !

ها هي بنت محمد (ص) تفد على ربها راضية مطمئنة ، فتطلب من (أسماء بنت عميس) أن تأتيها ببقية حنوط والدها وتضعها عند رأسها وتغتسل هي أحسن ما يكون من الغسل ، ثم تتسجى بثوب لها . . عند ذاك تطلب من (أسماء) أن تنتظرها هنيهة ثم تدعوها فان أجابت ، وإلا فلتعلم أنها قدمت على ربها :

وتلتظرها (أسماء) هنيهة ثم تناديها فلم تجب ، فتنادي :

يا بنت محمد المصطفى !

يا بنت أكرم من حملته النساء !

يا بنت خير من وطأ الحصى !

يا بنت من كان من ربه قاب قوسين أو أدنى !

. . . ويسود البيت سكون وهدوء ، فلا تسمع (أسماء) جواباً لندائها : . . فتكشف الثوب عن وجهها فاذا بها قد فارقت الدنيا .

• • •

دخل الحسنان البيت وقالا : أين أمنا ؟

أمسكت (أسماء) عن الكلام .

فدخلا الغرفة فاذا هي هامدة لا حراك بها ، عند ذاك توجه الحسين عليه السلام الى أخيه فقال : آجرك الله في الوالدة !

• • •

كان الامام عليه السلام قد خرج وقتئذ الى الجامع لصلاة المغرب ، فخرجا وأخبراه بالكارثة . . .

وما أن سمع الامام بذلك حتى غشي عليه ، ولما أفاق أخذ يقول :

بمن العزاء يا بنت محمد ؟

كنت بك أتعزى ، ففيم العزاء من بعدك ؟ !

ولقد سُمع يقول :

لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الفراق قليل

وان افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليل

• • •

وتجتمع نساء بني هاشم لتتلقى نبأ المصيبة تتجدد ، والقرح يسيل . .

وتضج المدينة ضجة واحدة للزهراء (ع) .

ويقبل الجميع لتعزية علي والحسنين ! ! !

لكم الله يا أولاد الزهراء ، ولئن كان لكم بوفاة الأب العظيم مصاب فادح ، ورزءٌ جلل ، ففي مصابكم بأمكم الطاهرة مالا يقل فداحة !

وصبراً على قضاء الرب الجليل ، ورضىً لرضاه .

تشييع هادىء

في ظلمة الليل البهيم ، حيث العيون نائمة والأصوات هادئة خرج موكب ملائكي من بيت علي عليه السلام ، يحمل وديعة رسول الله (ص) الى مثواها الأخير :

وكان ذلك ليلة الثالث من جمادى الثانية عام ١١ للهجرة . . . :

• • •

خرج الموكب الحزين مؤلفاً من عدة أشخاص يُعدّون بالأصابع :

ها هو علي : :

والحسن والحسين وزينب وأم كلثوم . . . :

ومن خلفهم أبو ذر وعمار وسلمان ! !

أما أين كانت الألوف المؤلفة من المسلمين في المدينة ؟ : فذلك مالم ترغب فيه الزهراء نفسها .

• • •

وينتهون بالنعش الى مكان بالبقيع ، ويوارون الزهراء . . . : ثم ينصرفون بسرعة كيلا يطلع على مكان القبر أحد !

وهكذا يأفل أول نجم من نجوم أهل البيت ، بعد أن أفل شمسهم قبل ثلاثة أشهر : : :

• • •

وهنا يتوقف محدثي عن القول ، ثم يسألني :

ألا تعجبك هذه النهاية ؟ ! !

وبدلا من أن أجيبه بشيء ، ألوذ بالصمت القاتل ، ثم ألوح له بيدي كأني أريد أن أقول له :

- وداعاً : : :

وداع . . .

سيدتي : بضعة النبي ،

أيتها الزهراء ،

يا أم الحسن ،

أنتهي عند هذا الحد من لقائي بك على هذه الصفحات ، ولم أتعدّ السفح ، وأنى لي ببلوغ حقيقة ما أنت عليه وقد أحلك الله القمة ؟ !

وأعود فأرفع (بطاقة الولاء) عند الوداع ، وقد خنقتني العبرة ، واعتلجت في صدري أنة عميقة ، لا شك أن القارىء الكريم يعرف أسبابها ويمنحني في ذلك الكثير من الحق !

مراجع الكتاب

١ ـ نهج البلاغة

٢ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

٣ ـ فدك في التاريخ : السيد محمد باقر الصدر

٤ ـ الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء : السيد عبدالحسين شرف الدين

٥ ـ بحار الانوار : العلامة المجلسي

٦ ـ بيت الاحزان : الشيخ عباس القمي

٧ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون : عباس محمود العقاد

٨ ـ الزهراء في التاريخ والسنة والأدب : السيد كاظم الكفائي

٩ ـ المعصومون الأربعة عشر : عبد المنعم الكاظمي

١٠ ـ السقيفة : الشيخ محمد رضا المظفر

١١ ـ المباهلة : الشيخ عبدالله السبيتي

١٢ ـ ناسخ التواريخ : محمد تقي سپهر

١٣ ـ الامالي : الشيخ الصدوق

١٤ ـ المراجعات : السيد عبد الحسين شرف الدين

١٥ ـ فضائل الخمسة من الصحاح الستة : السيد مرتضى الفيروزآبادي

١٦ ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة : الاربلي

١٧ ـ دلائل الامامة : الطبري

١٨ ـ ينابيع المودة : سليمان القندوزي

للمؤلف

آثار مطبوعة :

١ ـ دفاع عن العقيدة نفذ

٢ ـ سعياً وراء السعادة نفذ

٣ ـ الطفل بين الوراثة والتربية ج ١

٤ ـ الطفل بين الوراثة والتربية ج ٢

٥ ـ فاطمة الزهراء أم أبيها

معدة للطبع :

١ ـ لحظة مع المنتظر

٢ ـ ترجمة عبقات الأنوار فى ٢٠ جزء

بالاشتراك مع علي السيد نور الدين الميلاني

٣ ـ بحوث ومقالات

لقـــد قامت (مكتبة الصادق) في النجف الأشرف بنشر هـــذا الكتاب ، كجزء من خدماتها الجليلة في عالم الثقافة والعلم والمعرفة .

BP
80
.F36
M53

NOV 12 1971

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU55311326
BP80.F36 M53
Fatimah al-Zahra umm